روايات مصرية للجيب

زهور 100

أزمة منتصف الحب



د. نبيل فاروق

زهـور ١٠٠

هذا العدد هو العدد المئوى ، من هذه السلسلة ، التى تُعَدُّ الأولى والفريدة من نوعها فى الشـرق الأوسط كله ؛ إذ إنها السلسلة الرومانسية الوحيدة ، التى لا يخجـل أى أب وأم ، من وجودها بالمنزل ..

وهذا لأن السلسلة تقدم الحب والرومانسية ، من مفهوم مدروس ، ملتزم ، ومحترم ..

تقدمهما بمفهـوم واقعى جذاب ، يدخل كل عقل ، وكل بيت .. وعندما قمت بتقديم هذه السلسـلة ، فـى عددهـا الأول ، كان ابنى الأكبر شـريف يبدأ أشـهر حياتـه الأولـى ، والآن ، وأنا أقدم العدد المئوى منها ، يخطو هو نحـو عامـه العشرين تقريبًا .. وفى العدد الأول ، أهديت السلسلة إليه ..

أما فى العدد المئوى ، فأنا أهديهـا إلى كل القراء الذين صنعوا نجاحها ..

إليكم

د. نبيل فاروق

المقـدمـة

إليك يا من أحببت ..

وأحب ..

وسأظل أحب ..

إلى الأبد ..

د. نبيل فاروق

١ـ إليـــــك ..

حبيبتى ..

حبيبةَ قلبى ..

وعقلى ..

وروحى ..

وكيانى كله ..

يا من عشقت شوقى إليك ، بقدر ما سحرنى دومًا قربى منك ..

يا كل لحظة سعادة ، عشتها فى سنوات عمرى ، التى لا تتجاوز ما أحببتك فيها ، من أعمق أعماق وجودى ..

يا بئر الحب والحنان ، التى ارتويت منها سنوات ، دون أن تخفت لهفتى إليها ، أويقلّ نهمى لعذوبتها ..

يا باسمة الثغر ..

ودافئة القلب ..

ورائعةَ العقل ..

إليك أكتب كل هذا ..

والعجيب أننى ، وعلى الرغم من الأيام الجميلة ، التى قضيتها فى حبك ، والساعات العطرة التى جمعتنى بك ، وحتى اللحظات التى كانت تفصلنى عنك ، وتمزّق نياط قلبى تمزيقًا ، لم أُفكر يومًا فى الكتابة إليك ..

أبدًا ..

لم أتصوَّر قط ، أن الكلمات المكتوبة يمكن أن تمتلك تلك الفصاحة الرقيقة ، التى تهبط إلى لسانى كالوحى ، كلما التقيت بك ..

لم أتخيَّل أبدًا أنها قادرة على التعبير ، عما يجيش به صدرى ، وتتفجَّر به مشاعرى ، فور أن تقع عيناى على وجهك ..

ويا له من وجه ..

لست أدرى كيف يمكن أن يراه الآخرون ، ولكننى رأيته ، وأراه ، وسأظل أراه دومًا أجمل وجه ، فى الكون كله ..

بل ولعلنى تساءلت أكثر من مرة ، وليغفر لى الخالق (عزَّ وجلَّ) هذا ، كيف يمكن أن تكون وجوه الملائكة ، إن لم تكن كوجهك ..

فابتسامتك هى دومًا جنتى على الأرض ..

ونظراتك بحر الحب ، الذى لا ترهقنى السباحة فيه أبد الدهر ..

أما ضحكتك العذبة الرقيقة ، فما من مرة لم يستجب لها قلبى ، فيختلج كالطير المغرِّد بين ضلوعى ، ويتمنى لو تستمر ..

وتستمر ..

وتستمر ..

وكنت أخبرك بهذا ..

فتضحكين أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومع ضحكاتك هذه ، كان وجهك الصبوح يتخضَّب بحمرة خجل وحياء ، تزيد بهاءه بهاءً وروعة ..

رباه .. كم عشقتك ..

وأعشقك ..

وسأظل أعشقك حتى آخر العمر ..

وهذا أيضًا أخبرتك به كثيرًا ..

تمامًا كما أخبرتك بأمور عديدة ، لم أخبر ، أو حتى أجرؤ على أن أخبر بها أى مخلوق سواك ..

والمدهش أننى ، وعلى الرغم مما يصفنى به كل من عرفنى ، من الصمت والكتمان ، كنت أتحرَّر معك تمامًا ، من كل القيود ، التى وضعتها حول نفسى ، وألقى عنها كل الأقنعة ، التى تتعامل بها مع الآخرين ، وأطلق للسانى العنان ، بعد أن اعتاد السكون طويلاً ؛ لأروى لك كل شىء ..

كل ما أشعر به ..

أو يراودنى ..

أو أخطِّط له ..

كل شىء بلا استثناء ..

وكنت أجد فى هذا متعة خاصة ..

متعة لم أشعر بمثلها فى حياتى قط ..

متعة الحرية التى أعشقها ..

متعة أن أروى ..

وأروى ..

وأروى ..

إليك ..

ومتعة استماعك لرواياتى أيضًا ..

فإلى جوار صفاتك الرائعـة ، التى لن تكفى كل أوراقى لسردها ووصفها ، كنت دومًا مستمعة جيِّدة ..

وحانية ..

ودافئة ..

لذا فقد أصبحت واحتى ، فى هذه الدنيا ..

الواحة التى فيها أستظل ..

وأنتعش ..

وأرتوى ..

وأبتعد عن صحراء الحيـاة القاحلة المرهقة ، التى أتوه فيها منذ وعت عيناى الدنيا ..

ومنذ بدأ جسدى الكفاح ..

والقتال ..

والسعى ..

ولأنه من الطبيعى أن يعشق التائه فى الصحراء واحته ، وأن يتمسَّك بهـا ، ويتشبث بوجودهـا ، كـان من الطبيعـى أيضًا أن أتعلَّق بك ..

وأن أحبك ..

وأعشقك ..

وأذوب فى هواك ..

ومنذ اللحظة الأولى ، التى أدركت فيها أننى أحبك ، كمـا لم أحب من قبل ، اتخذت بشأنك قرارًا مهمًّا ..

وحاسمًا ..

قرار بأن أكون صادقًا معك دومًا ..

وإلى الأ بد ..

ولقد حرصت على هذا أشـد الحرص ، ولـم أخالفـه مرة واحدة ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

السطور التى لم أتصوَّر أن أكتبها لك أبدًا ..

كل ما قلته لك ، منـذ لحظـة لقائنـا الأولى ، صادق وصحيـح تمامًا يا أحب الناس ..

وهذا ينطبق على كل سطر ستقرئينه هنا ..

كل جملة ..

كل كلمة ..

بل كل حرف ..

فكما اعتدت معك ، سأترك لقلمى العنان ، كما فعلت بلسانى من قبل ..

وكما سأفعل بأفكارى أيضًا ..

سأصنع علاقة مباشرة ، بين عقلى وقلبى وقلمى ، بحيث تنهمر الأفكار من عقلى ؛ لتمتزج بنبضات قلبى ، ثم ينسكبان معًا عبر سن القلم إلى أوراقى ..

بمنتهى الصدق ..

والصراحة ..

والشفافية ..

والتلقائية أيضًا ..

وسأحاول ـ فقط سأحاول ـ أن أفكّر بمنهجية ، وموضوعية وفقًا لترتيب الأحداث ..

ولكن جلّ من لا يسهو ، فاعذرينى يا حبيبتى ، لو أن حدثًا ما قد أفلت من ذهنى ، فاضطررت للعودة إليه فيما بعد ..

أعذرينى ..

تمامًا كما كنت دومًا تفعلين ..

وكما عشت دومًا تعطين ..

وتمنحين ..

وتغفرين ..

ليس معى فقط ، ولكن مع الجميع ..

مع الجيران ..

والزملاء ..

والأصدقاء ..

ولكنك تخصيننى دومًا بالقدر الأعظم من كل هذا ..

وهذا أمر طبيعى ..

فأنت مثلى ..

عاشقة ..

والحب كما يقولون : أعمى ..

أعمى ؛ لأنه لا يرى فى المحبوب سوى كل جميل ..

وعظيم ..

ومثالى ..

وأنت خير من يعرف هذا ويدركه ؛ فعندما التقينا ، وتقاربنا ، وارتبط كل منا بالآخر ، كنت تتصورينني كأفضل رجل في الوجود ..

بل وكنت تعاملينني بانبهار مدهش ، آثار قلقي وحيرتي في البداية ..

وربما خوفي أيضًا ..

فمع فارق العمر بيننا ، كنت أخشى أن يكون هذا مجرَّد انفعال مؤقت ..

سطحي ..

محدود ..

وطبيعتي تخشى دومًا كل انفعال مبالغ ..

أو هي خبرتي ..

فمع سنوات الكفاح ، تعلَّمت دومًا أن النيران أقوى كثيرًا من الانفجارات المدوية ..

فالانفجارات تحدث فرقعة ..

ودخانًا ..

ودويًا ..

ثم سرعان ما تتلاشى ، ويذهب دويها ..

والانفجارات تنشأ عنها موجة تضاغطية قوية ، تطيح بكل ما أمامها ..

ثم يعقب هذا موجة تخلخل بنفس القوة ..

موجة ينحسر معها التضاغط ..

ويتراجع ..

وينكمش ..

بل ويرتدّ إلى أعمق أعماقه أيضًا ..

أما النيران ، فهي تبدأ هادئة ، ثم تمتد ..

وتمتد ..

وتمتد ..

الانفعالات القوية إذن أشبه بالانفجارات ..

تبدأ عنيفة ، مدوية .. تضاغطية ..

ثم سرعان ما تنحسر ..

وتذوي ..

وترتد ..

بل وفى كثير من الأحيان تنعكس إلى الجانب الآخر تمامًا ..

الصداقة تتحول إلى عداء ..

والثقة إلى الاتهام ..

والانبهار إلى ازدراء ..

والحب إلى مقت ..

أما الحب الهادئ ، فهو كالنيران ..

تبدأ كشرارة صغيرة ، فى مكان ما ، من أعمق أعماق القلب ..

ثم تكبر ..

وتسرى ..

وتنتشر ..

ويستيقظ المرء ذات يوم ، ليجد أن قلبه كله قد تحول إلى أتون من اللهب ..

ويكتوى بنيران الحب ..

ويستمتع بها ..

ويغنى لها ، كما فعل العندليب الراحل (عبد الحليم حافظ) ..

حبك نار ..

ولكنه فارق العمر مرة أخرى ..

حبك يدوى كالانفجار ..

وحبى يسرى كالنار ..

ولأننى أقسمت على الصدق ، فدعينى أعترف هنا بأننى لم أقع فى حبك منذ اللحظة الأولى ، كما يحدث فى أفلام السينما ، أو الروايات الرومانسية التقليدية ..

ولكنك جذبت انتباهى بالتأكيد ..

ومنذ اللحظة الأولى ..

منذ وقع بصرى على وجهك الفاتن ..

الساحر ..

الملائكى ..

وعلى الرغم من انبهارى الشديد بجمالك وفتنتك ، منذ الوهلة الأولى ، إلا أننى لم أتوقف عند هذا كثيرًا ..

ولم أصفه فى أعماقى بالاهتمام الخاص ..

أو أربطه بأية مشاعر ..

هذا لأن الخبرة علمتنى أيضًا أن الوجوه الجميلة ، قد لا تشف بالضرورة عن قلوب دافئة ..

أو عقول متحرِّرة ..

أو شخصيات جذَّابة ..

فكثيرًا ما كانت الوجوه الجميلة مرتبطة بالغرور ..

والتعالى ..

والغطرسة ..

وبعض الشراسة والأنانية أيضًا ..

ثم جمعت الظروف بينى وبينك ..

أو أنه القدر ..

فمع لقاءاتنا ، على فترات متباعدة نسبيًا ، بدأت أدرك أن هذا الوجه الفاتن الرقيق ، يعبِّر عن روح ملائكية هائمة ، وعقل متفتح منطلق ، وطبيعة أخَّاذة ، تجمع بين الرصانة ، والبساطة ، والثقافة ..

والرومانسية أيضًا ..

وبلا حدود ..

وهكذا بدأت النيران تشتعل فى قلبى ..

بدأت كشرارة صغيرة ..

شرارة اختارت أهم وأدق مناطق قلبى ..

وأكثرها حساسية ..

فلقد بدأت من مركز الحب مباشرة ..

أعلم أن هذا غير علمى ..

وغير دقيق ..

وغير منطقى أيضًا ..

ولكن هذا ما شعرت به ..

وأدركته ..

وأيقنت منه ، مع مرور الوقت والزمن ..

فالشرارة أصبحت شعلة ..

ثم نيرانًا ..

وبعدها تحوَّلت إلى ألسنة لهب ..

ومع نهاية العام الأوَّل لتعارفنا ، كان قلبى يشتعل ، فى أعمق أعماق صدرى ، ويضخ حممه العاطفية الملتهبة ، فى كل عرق ينبض فى جسدى ، كلما وقع بصرى عليك ..

ولم يفارقنى هذا الشعور قط ..

لم يفارقنى حتى هذه اللحظة ..

بل كان يتأكد ..

ويتأصَّل ..

ويتضاعف ..

ويقوى ..

ويشتد ..

ومع عامنا الرابع ، لم يعد لى من هدف ، فى حياتى كلها ، سوى أن أراك دومًا سعيدة ..

هانئة ..

فرحة ..

وآمنة ..

أصبحت أنت الهدف من وجودى كله ..

وغرقت فى بحر حبك ..

حتى النخاع ..

غرقت فيه ..

وسبحت فى عطره ..

وانتشيت بأمواجه ..

واسترخيت على شاطئه ..

ولكن يبدو أن القاعدة فى هذه الدنيا ، لا تتغيَّر أبدًا ..

فدوام الحال من المحال ..

بل من رابع المستحيلات ..

فالدنيا تمضى ، وتتطوَّر ، وتواجهنا كل يوم بجديد ..

ونحن ندور معها ، وكأننا فى أطراف دوَّامة قوية ، فى قلب محيط عميق غريق ..

ولا نجيد حتى السباحة ..

وهكذا بدأت الأمور تتغيَّر ..

والمشاعر تتطوَّر ..

وتتبدَّل ..

وطفت بعض الأمور على السطح ..

الدوَّامة نفسها ، التى تجذبنا إلى قاع محيط الدنيا ، انتزعت من ذلك القاع أمورًا كنا قد نسيناها ..

أو تجاهلناها ..

أو أغمضنا عيوننا عنها ..

ولم يعد الحال كما كان ..

ولم تعد الكلمات تطاوعنى ..

لسانى فقد تحرّره ..

وقلبى تألّم بنبضاته ..

وخفقاته ..

ونيرانه ..

حتى جسدى ، أعلن العصيان علىّ ، ولم يعد يستجيب لى ، أو يتهاون معى ، كما كان يفعل من قبل ..

وعندئذ ، أدركت الحقيقة ..

أدركت الفارق الكبير بينى وبينك ..

أدركت لماذا تتغيَّر الأمور وتتبدَّل ..

كنت كمن أفاق فجأة من حلم طويل ..

حلم جميل ..

ناعم ..

رقيق ..

ثم ارتطم فجأة بكابوس الحقائق الرهيب ..

ذلك الكابوس الذى يصر دومًا على أن يدس أنفه ، دون سابق إنذار ، فى كل لحظة جميلة من أحلامنا ..

استيقظت يا حبيبتى ؛ لأدرك أننى لم أمنحك ما تمنيت طوال الوقت أن أحيطك به ..

الاستقرار ..

والهناء ..

والأمان ..

ودون الدخول فى تفاصيل ، سيرد ذكرها فيما بعد ، يكفى أن أقول : إن ما أدركته قد مزّقنى من أعمق أعماقى ..

مزّقنى بلا رحمة ..

وبلا هوادة ..

وربما هو الذى دفعنى إلى أن أكتب هذه السطور ..

إليك ..

إلى عقلك ..

وقلبك ..

وروحك ..

لست أكتبها ليعود الحال إلى ما كان عليه ..

أو ليستيقظ الحب فى قلبك ..

أو حتى فى قلبى ..

فهذا لا يحدث أبدًا ..

حتى فى الأحلام ..

فللأسف ، ما زالت القاعدة سارية ..

دوام الحال من المحال ..

إنما راودتنى تلك الرغبة العارمة ، التى لم أستطع مقاومتها أبدًا ، فى أن أروى قصتنا على الورق ..

أرويها لك ..

وللتاريخ ..

تاريخنا ..

فمن أعمق أعماقى ، أتمنى لو أسترجع كل لحظة جمعتنا معًا ..

ومنذ البداية ..

بدايتنا .

* * *

٢ـ أوَّل نظـرة ..

رأيتك ..

نعم .. رأيتك ..

هذا كل ما يمكن أن أصف به المرة الأولى ، التى وقع فيها بصرى على وجهك ، فى ذلك اليوم ، من منتصف الشتاء ، منذ عدة أعوام مضت ..

كنت أعود إلى منزلى فى منتصف النهار ، على خلاف عادتى ، عندما رأيتك ..

وعلى الرغم من أنك كنت تقفين وسط مجموعة كبيرة ، من الشباب فى مثل عمرك أو حوله ، أمام منزلى ، إلا أننى أكاد أقسم أننى لم أر لحظتها سواك ..

وحدك ، انتقتك عيناى ، من وسط الجميع ؛ لتتعلقان بك ، وتنقلان إشارة خاصة وقوية ، إلى أعمق أعماق كيانى ؛ على نحو جعلنى أغمغم ، دون حتى أن أنتبه إلى هذا : « اللهم صل على النبى .. »

عبارة تقليدية دارجة ، اعتدنا ترديدها فى (مصر) ، إذا

ما انبهرت نفوسنا وعيوننا بجمال أخّاذ ، أو فتنة طاغية ، تتجاوز الحدود المعتادة ..

فلسبب ما ، بدا وكأن عدستى عينىّ قد أضيف إليهما مرشّح ضونى خاص ، من تلك التى تستخدم فى التصوير ؛ للتركيز على بؤرة بعينها ، ووضعها فى مركز الرؤية الواضحة ، وتمويه كل ما حولها ، أو تشتيته ..

كنت أراك وحدك ، بين كل هؤلاء ..

أراك بوضوح شديد ..

وتام ..

وقوى ..

وكل هذا لثوان معدودة ، لم تبلغ حتى نصف الدقيقة ..

فبطبيعتى الرصينة ، كان لا بد وأن أتجاوز انبهارى بك بسرعة ، وأن أدير عينىّ بعيدًا عن وجهك الساحر الفاتن ، قبل أن تضبطنى عين آخرى ، وأنا أحدّق فيك بكل هذا الشغف ، فينهار الجدار الوقور ، الذى أصرّ دومًا على بنائه ، بينى وبين الجميع ..

ولكن تلك الثوانى القليلة كان لها تأثير عجيب فى نفسى ..

فى عقلى ..

وقلبى ..

وحتى فى جسدى ..

فالشىء الذى أثق فيه تمامًا ، هو أنك أيضًا ، رحت تتابعيننى ببصرك بكل الشغف والاهتمام ، خلال الثوانى نفسها ..

لقد جذب كل منا انتباه الآخر ..

واهتمامه ..

تمامًا كما لو أننا روحان متوافقان تواجها ..

وتلاقيا ..

وائتلفا ..

ولم تفارق ملامحك ذهنى لفترة طويلة ..

فترة ، ربما بلغت يومها ساعات ..

وساعات ..

وساعات ..

ولكننى قاومت ذلك الشعور العجيب ، الذى سرى لأوّل مرة فى أعماقى ، والذى أدهشنى ..

وأقلقنى ..

وأخافنى أيضًا ..

قاومت ..

وقاومت ..

وقاومت ..

ثم تصوَّرت أننى قد ربحت معركتى مع نفسى ..

وانتصرت عليها ..

وأخضعتها ..

ولكنها كانت خدعة كبيرة ، قمت بها أنا وعقلى الواعى ؛ لخداع ذلك العقل الباطن ، الذى يتحدَّث عنه علماء النفس دومًا ، والذى يبدو أنه لا سبيل لهزيمته قط ..

فقد استغرقت فى النوم فى النهاية ، وراودنى حلم طويل ..

حلم جميل ..

ناعم ..

ورقيق ..

هذا لأنك كنت بطلته ..

تلك الثوانى القليلة ، تركت فى عقلى الباطن ، ما لم تتركه ساعات ، وأيام ، وسنوات قضيتها مع أخريات ..

أى سر يكمن فيك إذن ؟

أى سر ؟

استيقظت وأنا أطرح على نفسى هذا السؤال ..

وأتحاور بشأنه ..

وأنشغل به ..

ثم عدت أقاتل نفسى بنفسى ؛ لطرح الأمر كله جانبًا ، ونسيانه ، والمضى فى حياتى العادية التقليدية ..

وكان يمكن أن يحدث هذا ، على الرغم من صعوبته ..

لولا أن التقينا مصادفةً ، بعدها بأيام قليلة ..

والواقع أننى لا أؤمن كثيرًا بالمصادفات ..

ولكننى أؤمن بالقدر ..

القدر الذى قرَّر أن يجمعنا مرة أخرى ..

ففعل ..

وفى تلك المرة ، كنت أنت صاحبة المبادرة ..

ولن أنسى أبدًا ذلك اللقاء ..

لن أنسى ابتسامتك الساحرة ..

ووجهك الجميل ..

وكلماتك الرقيقة ..

كان لقاؤنا بعد مغيب الشمس ، ولكن بدا لى وكأن وجهك المشرق قد أحال الليل إلى نهار ..

نهار من السعادة ..

والفرح ..

والحب ..

واللَّهفة ..

أما كلماتك التلقائية البسيطة ، فقد بدت منتشية ، سعيدة ، مبهورة ..

وعاد قلبى يخفق ..

ويخفق ..

ويخفق ..

وعاد عقلى الباطن يسترجع السيطرة على ذهنى الواعى ..

وقلبى ..

ومشاعرى ..

وأوتارى ..

طبيعتك الساحرة عزفت على كل أوتار مشاعرى بلا استثناء ، ودفعتنى للتخلى عن كل ما تبنيّته طيلة عمرى ، لأسألك فى اهتمام ، حاولت أن أخفيه خلف قناع الرصانة ، عما إذا كنت سأراك مرة أخرى ..

لحظتها ابتسمت فى حياء ، وغمغمت بكلمة واحدة ، ما زالت تتراقص فى أذنىَّ حتى هذه اللحظة:

« أكيد .. »

وافترقنا ..

لست أقصد أنا وأنت ..

وإنما أنا وقلبى ..

فأنا أكملت مسيرتى ، إلى حيث أتجه ، أما هو ، فقد تعلَّق بك ..

وسار خلفك ..

وتعبَّد فى محرابك ..

وكم تمنيت لحظتها أن أتبعه ..

وأتبعك ..

ولكن هذا لم يكن متاحًا ..

أو حتى ممكنًا ..

لذا فقد عدت أقاوم ..

وأقاوم ..

وأقاوم ..

وأبى القدر أن يتيح لى فرصة النصر ..

فلم تمض أيام قليلة ، حتى جمعنى بك ، وبعد من صديقاتك ، لقاء آخر ، من اللقاءات التى أعقدها فى المعتاد مع الشباب ، كجزء من طبيعة عملى ومهنتى ..

وأدركت عندئذ أن المقاومة لن تفلح ..

لن تتواصل ..

أو تنتصر ..

فلماذا لا أستسلم إذن ؟

لماذا لا يرفع قلبى رايته البيضاء ، ويعلن عجزه عن المقاومة ، ورغبته المستميتة والأولى ، فى أن ينهزم فى معركة ما ..

فالهزيمة ، فى هذه المرة بالذات ، بدت لى أشبه بالنصر ..

بقمة النصر ..

وقرَّرت أن أترك قلبى يتعلَّق بك ..

ويهواك ..

ويعشقك ..

كل ما اتفقت عليه معه ، هو أن تظل كل هذه المشاعر حبيسة قفصى الصدرى ، فلا تبرز منه قط ، ولا تعلن عن نفسها أبدًا ..

ولكننى خشيت ألا تشترك عيناى فى هذه الاتفاقية ..

وأن تكشفا أمرنا ..

أنا وقلبى ..

فالشاعر يقول :« الصب تفضحه عيونه .. »

المحب إذن يمكن أن يخفى انفعالاته ، ويرتب مشاعره ..

ولكن عينيه تفضحانه دومًا ..

فالعين تعشق قبل القلب أحيانًا ..

وتهيم عشقًا معه بالتأكيد ..

وهى واضحة ..

جلية ..

مكشوفة ..

ما إن تجوب القلب مشاعر ما ، حتى تبرز فيها ومنها ، وتعلن عن نفسها فى التماعتها ..

وحركتها ..

وانطلاقتها ..

وحتى فى انكسارها ..

لا بد وأن تشترك عيناى فى الاتفاقية إذن ..

لو أمكننى هذا ..

ومن الناحية العملية والمنطقية ، كان هذا مستحيلاً تمامًا ..

عيناى رفضتا المشاركة ..

رفضتا الانضمام إلى مؤامرة عاطفية ، تسعى لإخماد وإخفاء عواطف بريئة شفافة ..

وطاهرة ..

ولقد حاولت إقناعها بالعكس ..

حاولت ..

وحاولت ..

وحاولت ..

ثم أدركت عبث المحاولة ..

وعقم الصراع ..

عيناى ستتمردان دومًا وأبدًا ..

ستلتمعان لمرآك ..

وتدوران لمتابعتك ..

وتنبهران لجمالك ..

وتستسلمان لفتنتك ..

تمامًا كما يخفق قلبى ..

وتتلاحق أنفاسى ..

وترتجف كل ذرة من كيانى ..

ولم تكن أمامى سوى وسيلة واحدة إذن ..

أن أتحاشى النظر إليك ..

وبأى ثمن ..

وهذا ما فعلته ..

كنت أتحدّث إلى الجميع ، وأوليهم اهتمامى كله ، وأحاول ألا أتوقّف عندك طويلاً ، حتى لا تفضحنى عيناى ..

وكنت أشعر أن هذا يقلقك ..

ويحيّرك ..

ويربكك ..

ولكنه كان حلى الوحيد ..

وفى كل مرة تنصرفين معهن ، كنت أحاول تعويض كل لمحة فقدتها ، بسبب أسلوب الهروب هذا ..

كنت أعيد النظر ، إلى كل مكان جلست فيه ..

أو توقفت عنده ..

أو حتى تطلّعت إليه ..

وكنت أغلق عينىَّ المتمردتين ، محاولاً استرجاع صورتك ..

وجمالك ..

وابتسامتك ..

وسحرك ..

ثم أعود فأنفض كل هذا عن ذهنى ..

أو أحاول على الأقل ..

كنت أحاول ..

وأحاول ..

وأحاول ..

وأفشل ..

نعم .. أفشل تمامًا فى إبعاد صورتك عن ذهنى ..

عن قلبى ..

عن مشاعرى كلها ..

الشىء الوحيد ، الذى نجحت فيه ، هو أن أخفى اهتمامى بك عن كل من حولى ..

عن أصدقائى ..

وأصدقائك ..

ومعارفى ..

ومعارفك ..

وحتى عنك شخصيًا ..

كل ما كان يهمنى أو يشغلنى هو أن أراك ..

وأسمعك ..

وأنعم بقربك ..

ولأوّل مرة فى حياتى ، وبعد سنوات عمرى ، التى تكسبنى خبرة تساوى عمرك كله تقريبًا ، وجدت نفسى أنشغل بنزعات قلبى ، وأطيع خفقاته ، وأستسلم لمطالبه ، التى كانت تتنافى بشدة ، مع كل ما يمليه علىَّ عقلى وعمرى طوال الوقت ..

ولأوّل مرة أيضًا ، بدأت أحيا مشاعر خاصة ، لم تراود قلبى قط ، حتى فى أيام صباى وشبابى ..

مشاعر تتفجَّر ، عندما أسمع اسمك ..

أو أمرَّ بمنزلك ..

أو حتى ألمحك ..

ولأنك لا تعلمين ..

ولأننى نجحت فى إخفاء الأمر عن الجميع ، حسبما تصوَّرت وأتصوَّر ، فقد هدأت نفسى ..

واسترخت ..

واستكانت ..

واستراحت ..

وبدأت تستمتع بلقاءاتك ..

ومحادثاتك ..

ومرحك ..

وبساطتك ..

وتواضعك ..

وثقافتك أيضًا ..

وظللت أحافظ على القاعدة ، التى التزمت بها دومًا ..

ألا تلتقى عيناى بعينيك أبدًا ..

أبدًا ..

ولكن القدر كان يأبى أن يستكين الأمر عند هذا الحد ، أو يتوقَّف أمام هذه المرحلة ، التى كانت تكفينى وتزيد ، خاصة وأن مشاعرى الخاصة تجاهك ، حتى تلك الفترة ، كانت الانبهار والإعجاب الشديد ، بأكثر مما هى الحب الخالص الكبير ..

أو هكذا حاولت إقناع نفسى ..

ففى داخلى ، ولأننى أمتلك عقلية منطقية تحليلية ، رحت أرصد الموقف ، وأناقشه ، وأجادل فيه قلبى ، فى إصرار وحزم وحسم ..

وفى لحظة صدق ، طرحت على نفسى السؤال ..

هل أحبك ؟

أهو إعجاب كبير ، أم حب حقيقى ؟

والواقع أننى لم أكن أؤمن أبدًا بما يسمونه (الحب من أول نظرة) ..

ولا حتى من الثانية ..

فالحب ، فى رأيى ، كان اختيارًا ..

وقرارًا ..

وارتباطًا واضحًا ..

ومتناسبًا ..

أما فى موقفنا ، فالوصف الوحيد ، الذى كان بإمكانى إطلاقه على مشاعرى نحوك ، هو نفسه ذلك المصطلح ، الذى يردده الصحفيون ، وأطباء علم النفس ، والمهوسون بالشهرة والأضواء ..

أزمة منتصف العمر ..

إنها تلك المرحلة ، التى يقولون : إن كل رجل يمر بها حتمًا ، عندما يبلغ منتصف عمره ، ويشعر أن النهاية قد صارت أدنى من البداية ..

عندئذ يسعى للتشبث بالحياة ..

والشباب ..

والحب ..

باختصار ، يتمسك بآخر ما تبقى ، من سنوات شبابه ..

وفى حالة كهذه ، وعندما يكون فارق العمر بيننا ملحوظًا ، فمن الطبيعى ، والمنطقى أيضًا ، أن تعتبر الدنيا كلها أن ما أمر به هو تلك الأزمة ..

أزمة منتصف العمر ..

أزمة انحسار الشباب ..

واقتراب الكهولة ..

ومن المؤكَّد أنك ستتوقفين بعض الوقت ، عند هذه الفقرة ؛ فأنت تعرفيننى جيدًا ، بعد كل هذه السنوات ، وتدركين أن آراء الآخرين لم توقفنى أو تقلقنى أبدًا ، ما دمت مقتنعًا بما أفعله ، وأؤمن به تمامًا ..

وهذه حقيقة ..

فمنذ صباى ، لا أتوقَّف كثيرًا عند آراء الآخرين ، وبخاصة إذا ما كانت نمطية تقليدية ، تعتمد نهجًا ثابتًا ، لا يضع أية ظروف أو مواصفات خاصة فى اعتباره ..

ثم إننى أتصوَّر دومًا أننى أعرف كيف يفكرون ..

كيف ينظرون ..

ويتابعون ..

ويحكمون ..

ولأننى لم أقتنع أبدًا بالنظرة التعميمية للأمور ، أو لأننى أؤمن تمامًا بأن كل شخص هو حالة خاصة ، لا يمكن أن تنطبق عليها القواعد العامة ، فقد اعتدت تجاهل آراء الآخرين ..

ولكن ماذا عن رأيى أنا ؟

أنا نفسى ، تصوَّرت أن ما أمر به هو أزمة منتصف العمر ..

تصوَّرت هذا ..

وناقشته ..

وحللته ..

وقاومته بعض الوقت ..

ثم لم أجد تفسيرًا يريح الأمور سواه ..

نعم .. إنها الأزمة ..

أزمة رجل مثلى ، بلغ منتصف عمره ، أمام فاتنة مثلك ، فى ريعان شبابها ..

وجمالها ..

وسحرها ..

التفسير أزعجنى بالتأكيد ..

وأرهقنى ..

وأحزننى بعض الشىء ..

إلا أنه وجد صدى فى عقلى ، على الرغم من اعتراضات قلبى المستميتة ، فركنت إليه ، واتخذته تعليلاً لموقفى ، و ...

وسارت الحياة ..

ولأن الإنسان لا يستطيع أن يحب أو يكره بقرار ، فقد قرَّرت قبول تفسير الأزمة منتصف العمرية بعقلى ..

وعجزت عن قبولها بقلبى ..

بل قلبى هو الذى رفض ..

وأبى ..

واعترض ..

وغضب أيضًا ..

وفى واحدة من المرات القليلة فى حياتى كلها ، انفصل عقلى وقلبى ، وخاصم كل منهما الآخر ، وتفرَّقا ..

وفى كل ركن من أركان نفسى ، انزوى أحدهما غاضبًا ، وقبع الآخر مستنكرًا ..

ووسط كل هذا ظللت ألتقى بك مع صديقاتك ..

نتحدَّث ..

ونتشاور ..

ونتجادل ..

وظللت كما أنا ، أتحاشى النظر إلى بحر عينيك العميق ، خشية أن أغرق فيه أمام الجميع ، ثم لا أجد طوق نجاة واحد ، يمكن أن ينتشلنى منه ..

واكتفيت بهذا ..

اكتفيت بوجودك بينهم ..

وأمامى ..

وفى كل مرة نلتقى ، كنت أقاوم مشاعرى نحوك ..

وأقاوم ..

وأقاوم ..

وكان يمكننى أن أقاوم إلى الأبد ، لولا ما أخبرتنا به إحدى صديقاتك عرضًا ، وفى وجودك ..

ولا يمكننى أبدًا ، ومهما طال بى الزمن ، أن أنسى ما أصابنى ، فى اللحظة التى أخبرتنى فيها صديقتك ما لديها ..

فلقد أخبرتنى ، ببساطة ، وتلقائية ، وعفوية تامة أنك غارقة فى الحب ..

حب شخص ..

آخر .

* * *

٣ ـ حبـــك ..

أنت تحبين ..

بل غارقة فى الحب ..

صديقتك أخبرتنى بهذا ، وهى تجلس إلى جوارك أمامى ..

وخفق قلبى لحظتها خفقة قوية ..

خفقة عنيفة ..

وبائسة ..

خفقة حطَّمت كل ما حملته مشاعرى لعدة أشهر ، وأيقظتنى من غفوتى ، وألقت بى على شاطئ الواقع ..

برماله الخشنة ..

وصخوره الحادة ..

وقسوته ..

ووضوحه ..

ولست أدرى كيف قاومت مشاعرى لحظتها ..

كيف أخمدت حمم انفعالاتى ..

ونيران أحاسيسى ..

ولهيب أعصابى ..

كيف ؟

كيف ؟

لقد اخترقت الحقيقة كيانى ، كخنجر قديم صدئ ، يمزِّق بأكثر مما يقطع ..

ولم ينجرح قلبى ..

بل تحطَّم ..

وتهتَّك ..

وانهار ..

ولكن العجيب أن كل هذا حدث فى أعماقى فحسب ..

أما ظاهرى ، فظل متماسكًا ..

قويًا ..

رصينًا ..

مجمدًا ..

وهذا ليس تصورى الشخصى ، ولكنه نتاج ما حملته ملامحكن لحظتها ، عندما تواصل الحديث ، دون أن تتوقف إحداكن لحظة واحدة ، أو يبدو على وجهها أن ملامحى أو صوتى قد حملا انفعالاً يفوق المألوف أو المعتاد ..

أنت نفسك واصلت الحديث ، ورحت تتحدثين عنه ..

عن حبيبك ..

واستمعت أنا إليك ، كما أفعل دومًا ..

ولكن شتان بين وقع كلماتك على أذنىَّ فى الحالتين ..

أذناى نفسهما ، لم تعودا كما كانتا ..

ففيما مضى ، كانتا تنتشيان لسماع صوتك ..

وكلماتك ..

وأفكارك ..

أما فى تلك اللحظات ، فكانتا تبكيان ..

وتنتحبان ..

وتتأسيان ..

فيما مضى كنت لا أشبع من حديثك أبدًا ..

ولحظتها تمنيت أن تتوقفى ..

أن تلوذى بالصمت ..

بالسكوت ..

كل كلمة تصفين بها حبك له ، كانت تحرق جزءًا من قلبى..

وتلهبه ..

وتحيله إلى رماد ساخن سخيف ..

نيران جديدة اشتعلت فيه ..

نيران تختلف تمام الاختلاف ، عن نيران حبك السابقة ..

نيران تكوى ..

وتحرق ..

وتلتهم ..

ولأن الزمن نسبى ، كما يقول (أينشتين) ، فقد خُيِّل إلىَّ أنك قد قضيت دهرًا تتحدثين عنه ..

بل عدة دهور ..

وفى النهاية ، وبعد أن أكملت حديثك عنه ، طلبت منى المشورة ..

ليس حول هويته ..

أو طبيعته ..

أو أسلوبه ..

ولكن حول ما يمكنك أن تفعليه ؛ لتنالى حبه كله ..

لم يكن يكفيك اهتمامه بك ..

ورسائله إليك ..

وحديثه معك ..

كنت تريدين حبه ..

كل حبه ..

بلا استثناء ..

ولسبب ما ، تصورت أننى أفضل من يمنحك المشورة ، فى هذا الشأن ..

أنا ، من دون أهل الأرض جميعًا ..

ويا للعجب !!

والأعجب أننى قد منحتك إياها ..

وبكل الصدق ..

والصراحة ..

والاهتمام أيضًا ..

لقد شرحت لك كيف تجذبين انتباهه أكثر ..

وتخلبين لبه ..

وتكسبين حبه ..

كل حبه ..

شرحت ..

وشرحت ..

وشرحت ..

واستمعت أنت فى اهتمام وانتباه ، وعلى نحو يوحى بأن عقلك يختزن كل كلمة ؛ حتى تستفيدى منها فيما بعد ..

ولست أدرى بالضبط لماذا فعلت هذا ..

ربما لأنك تحبين ..

ولأننى أردت أن أراك سعيدة ..

هانئة ..

آمنة ..

كانت حالة من حالات منتهى الحب ، لم أنتبه إليها فى حينها ..

الحب الذى لا يبالى المرء معه بما يريد ..

لا يهتم بما يهوى ..

أو بما يشتهى ..

المهم هو من يحب ..

المهم أن يراه مستقرًا ..

فائزًا ..

مطمئنًا ..

هانئًا ..

ففى تلك اللحظات ، أدركت أنك تحبين شخصًا آخر ، وأنه من واجبى أن أساعدك على الارتباط بمن تحبين ..

حتى ولو لم يكن أنا ..

أو لو كان شخصًا آخر ..

شخص مثل حبيبك ..

ولأكثر من ساعة كاملة ، منحتك كل نصائحى فى هذا الشأن ..

أو بمعنى آخر ، منحتك لحبيبك الآخر ..

ويا له من شعور ..

شعور لم أدرك ماهيته الحقيقية ، إلا بعد أن انصرفت مع صديقاتك ، كما يحدث فى كل مرة ..

ففى تلك المرة بالذات ، عجزت عن متابعة المواضع ، التى سعدت بقربك ..

بلمساتك ..

بدفئك ..

عجزت حتى عن النظر إلى حيث كنت تجلسين ..

ويومها ، قرَّرت أن أنتزعك من قلبى ..

حتى ولو انتزعت قلبى نفسه ، من بين ضلوعى ، وألقيته أرضًا ، وسحقته بقدمىَ سحقًا ..

فأنت لست لى ..

بل لآخر ..

حبيب آخر ..

وعلى الرغم من أننا لم نكن قد التقينا على نحو فعلى ، حتى تلك الفترة ، إلا أننى رحت أمر بكل ما يمر بـه عاشق ولهان ، فقد عشقه بغتة ، دون سابق إنذار ..

لقد شعرت بغتة بالفراغ ..

فراغ رهيب ، يحيط بمشاعرى من كل جانب ..

فراغ نفسى ..

ومعنوى ..

وعاطفى ..

ولثلاثة أيام كاملة ، لم أستطع ممارسة عملى ..

أو القيام بواجباتى ..

أو حتى ترتيب أفكارى ..

خواء تام ، ذلك الذى شعر به قلبى وعقلى ..

بل وجودى كله ..

خواء ..

وفراغ ..

وعدم ..

وبدأ فى وجدانى صراع آخر ..

صراع للتخلُّص منك ..

صراع كنت وما زلت أعتبره الأعنف ، فى حياتى كلها ..

ففى نفس الوقت ، الذى أصارع فيه ، للخروج من بوتقة سحرك الدافئ الأخَّاذ ، رحت تتصلين بى هاتفيًا ، لاستشارتى فى كل ما يتعلَّق بعلاقتك به ..

بحبيبك ..

وحبك ..

وكنت دومًا أرشدك ..

وبصدق ..

وذات يوم ، شكوت لى من أنه يطالبك بالتغير ..

يطالبك بتغيير عاداتك ..

وطبائعك ..

وشكلك أيضًا ..

يومها ، عجزت عن ارتداء قناع الرصانة والرزانة ، الذى أكسو به صوتى ، كلما تحدَّثت إليك ..

وانفعلت ..

انفعلت ، وأنا أطالبك بألا تنفذى هذا أبدًا ..

بألا تتغيَّرى من أجله ..

أو من أجل أى مخلوق آخر ..

فلم أتصوَّر قط أنه يمكنك أن تتغيَّرى ..

الملائكة لا تتغيَّر ..

ولا يمكن أن تتغيَّر ..

لا بد وأن يظلوا كما هم ..

ملائكة ..

يومها ، ولأوَّل مرة ، شعرت بغضب شديد تجاهه ..

تجاه حبيبك ..

كيف يطالبك بالتغيير ؟

كيف ؟

كيف لم ير جمالك !!

وسحرك ..

وجاذبيتك ..

ودفئك !!

وروعتك ..

كيف ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

أى أعمى أحمق هو ..

ويومها ، ومن فرط انفعالى ـ لأوَّل مرة ـ أخبرتك أنك مخلوق رائع ، وأنه من النادر أن يعثر المرء على من فى مثل روعتك ، وأن من يريدك فعليه أن يأخذك كما أنت ..

وأن يشكر الخالق (عزَّ وجلَّ) ، على النعمة التى منحه إياها أيضًا ..

كانت أوَّل مرة أخبرك بوضوح كيف أراك ..

كيف أقدِّرك ..

وأحترمك ..

و ...

وحسب ..

فمع وجود حبيب آخر ، كان من المستحيل أن أخبرك بحبى ..

أو حتى أشير إليه ..

ولكنك استمعت إلىَّ جيدًا ..

وفى صمت ..

صمت تام ..

وعندما انتهيت من حديثى ، تواصل الصمت بيننا لبعض الوقت ..

ربما لثانية ..

أو دقيقة ..

أو حتى ساعة ..

لست أدرى ..

ففى كل الأحوال ، بدت لى فترة الصمت تلك أشبه بدهر طويل ..

لقد صارحتك ببعض مشاعرى ..

وكنت أخشى رد الفعل ..

أخشاه كما لم أخش شيئًا ، فى حياتى كلها ..

وعندما تحدثت ، خفق قلبى فى عنف ..

وكانت كلماتك رقيقة دافئة كالمعتاد ..

كنت تشكريننى على ما قلته ، وتسأليننى أن نتواصل محادثاتنا مرات أخرى ..

وبكل حماس الدنيا ، أجبتك بأن هذا ما أنشده أنا أيضًا ..

وأنهيت الاتصال ..

أنهيته وقلبى ينبض فى قوة ، غير مصدِّق أنه قد تجاوز الموقف ..

لقد صارحتك ببعض مشاعرى ..

ومضى الأمر فى سلام ..

وكان هذا كل ما أتمناه ..

ألا أخسرك ..

وبأى ثمن كان ..

وكم أراحنى الوصول إلى تلك النتيجة ..

وعاد قلبى يهدأ ..

ويرتاح ..

كنت كمن شارف هزيمة ساحقة ، ثم أفلت من الموت فى اللحظات الأخيرة ، وخرج من المعركة بجراح غير قاتلة ..

أنت تحبين آخر ..

ولكنك لا تكرهيننى ..

وهذا يكفى ..

وكان يمكن أن يكفى إلى الأبد ..

ولكنك أنت بدأت مرحلة جديدة ..

مرحلة بدوت خلالها أكثر اهتمامًا بكلماتى ، كلما جمعتنا تلك اللقاءات المشتركة ..

أكثر اهتمامًا بكثير ..

وبدأت عيناك تحملان ما هو أكثر من الاهتمام ..

وأبعد من الإعجاب ..

رأيت هذا ..

وقرأته ..

وخفق قلبى من أجله ..

ولكننى لم أستسلم له ..

كنت أخشى أنها الأوهام ..

أوهام منتصف العمر ..

أوهام عاشق ، يتمنى من كل خلية فى قلبه ، وكل قطرة دم فى عروقه ، أن يحظى بلمحة من حب معشوقته ..

وبخاصة لو أنها أنت ..

وبكل قوتى وطاقتى ، رحت أكذّب ما أراه ..

وأستنكر ما أشعر به ..

وأقاوم ما يخبرنى به قلبى ..

وعقلى ..

وكيانى ..

ولكن حديثك عن حبيبك بدأ يقلّ ..

ويقلّ ..

ويقلّ ..

ثم توقف تمامًا ..

كنت وكأنك تتحاشين ذكره أمامى ..

أو حتى الإشارة إليه ..

وحملت كلماتك دفئًا خاصًا ، أدركتــه أذنـاى ، وأيقنه قلبـى ، قبل أن يؤيدهما عقلى بحماس دافق ..

نعم .. هذا حقيقى ..

لست واهمًا ..

أو مخدوعًا ..

أو أعانى من تلك الأزمة النفسية السخيفة ..

ففى هذه المرة ، لست أنا من يقوم بالدور الإيجابى ..

إنه أنت ..

ولكننى ، ولسبب ما ، ظللت خائفًا ..

مترددًا ..

مرتبكًا ..

حتى حسم الأمر ، على نحو ما ، سؤال طرحتــه علىَّ ، فى وجود الجميع ..

سؤال حول عواطفى ومشاعرى ..

سؤال بدا عامًا ، ولكن شيئًا ما ، فى أعمق أعمـاقى ، أنبأنى أنه سؤال خاص ..

وخاص جدًا ..

سؤال موجّه منك إلىَّ ..

من قلبك إلى قلبى ..

مباشرة ..

والواقع أنه ، وعلى الرغم من الرصانة ، التى نطق بهـا لسانى جواب سؤالك ، فقد كانت كل ذرة فى كيانى ترتجف ..

وتنتفض ..

وتتساءل ..

وظلَّت التساؤلات تدور فى ذهنى ، وفى مشاعرى ، حتى بعد انصرافكن بساعات ..

ساعات طوال ..

وفى نهاية الأمر ، لم أجد أمامى سوى وسيلة واحدة ، لحسم تلك التساؤلات ، وإزالة الترددات ، وإيجاد جواب شاف لكل ما يلتهب فى أعماقى ، قبل أن ينهار كيانى كله ..

لذا ، فقد كسرت لأوّل مرة ذلك الحاجز ، الذى بنيته بينى وبين الجميع ، والتقطت سمّاعة الهاتف ، و ...

واتصلت بك ..

وعندما حملت أسلاك الهاتف دهشتك الفرحة لاتصالى ، وجدت نفسى أرتبك ، وأفقد كل ما رتبته فى أعماقى قبل الاتصال ..

كل ما قلته يومها ، هو أننى أريد أن أراك ..

وحدك ..

واستجبت أنت بسرعة ..

بل بلهفة ..

لهفة تقترب من حافة الحب ..

فبعد أقل من ساعة واحدة ، التقينا ..

ولأوّل مرة ، منذ فترة طويلة ، تطلّعت إلى عينيك مباشرة ..

وغرقت ..

غرقت فى بحرهما العميق ..

الواسع ..

الدافئ ..

وغرقت فى حبك ..

غرقت فيه حتى قمة رأسى ..

وفى ذلك اللقاء بالتحديد ، لم أستطع ، بل ولم أحاول حتى أن أخفى مشاعرى ..

لقد نقلتها إليك ..

نقلتها واضحة ..

خالصة ..

مباشرة ..

واستمعت أنت إلىّ بوجه منحته حمرة الخجل فتنة إضافية طاغية ، وبعينين تطلّ منهما السعادة ..

كل سعادة الدنيا ..

لم أدر كيف ، ولكن هذا ما شعرت به لحظتها ..

وما أشعر به ، حتى هذه اللحظة ، عندما أستعيد ما حدث يومها ..

لست أدرى حتى كيف انتهت علاقتك بحبيبك ..

ولا متى ..

كل ما أعلمه هو أنك قد توقفت عن التحدُّث عنه ، منذ فترة ما ..

وبالتأكيد لم نتحدَّث عنه ، فى ذلك اليوم ..

اليوم ، الذى لن أنساه أبدًا .. ..

اليوم ، الذى صارحتك فيه بحقيقة مشاعرى ، ثم طلبت منك ألا تجيبى عما سمعته منى ..

طلبت منك أن تستوعبيه فحسب ..

وأن تدرسيه بمنتهى العناية ..

ومنحتك أسبوعًا كاملاً ، قبل أن أسمع ردك ..

كنت أراها مهلة كافية ، لحسم الأمور فى أعماقك ، واتخاذ القرار فى شأن مشاعرى نحوك ..

ومشاعرك نحوى ..

أو على الأقل ، لتصفية كل ما بداخلك ، من مشاعر حبك القديمة ..

يومها أبديت رغبتك فى إجابتى فورًا ..

وكان هذا يعنى أن مشاعرك واضحة ..

معروفة ..

ومقرَّرة سلفًا ..

إلا أننى أصررت على منحك تلك المهلة ..

ربما لأننى خشيت جوابًا متسرِّعًا ، قد تندمين عليه فيما بعد ..

جواب قد يصبح عبئًا على قلبك ومشاعرك ، بعد فترة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ..

بل إننى ناقشتك بوضوح ، فى كل مخاوفى ..

فى فارق السن ..

والخبرة ..

أخبرتك عن أزمة منتصف العمر ..

وعن زيف المشاعر ..

وفرص الحياة ..

حاولت تبصيرك بعواقب الزمن ..

وتغيراته ..

ومفاجآته ..

وواصلت أنت الاستماع إلىَّ بابتسامة هادئة ..

وبعينين تحملان الحب ..

كل الحب ..

وعندما افترقنا ، فى ذلك اليوم ، أدركت أننى غارق فى حبك حتى النخاع ..

إننى أحبك ..

وسأظل أحبك ، حتى آخر العمر ..

عمرى أنا بالطبع ..

فقد انصرفت ، وأنت تحملين قلبى فى يدك ..

فى عينيك ..

فى وجهك ..

وفى قلبك أيضًا ..

ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد قلبى ملكًا لى ..

لقد صار ملكًا لك ..

لك وحدك ..

ملكية أبدية ، دائمة ، غير قابلة للتراجع ، أو التنازل .. أبدًا ..

ولقد قضيت ذلك الأسبوع ، وأنا أفكر فيك فى كل ساعة ..

وكل دقيقة ..

وكان ثانية ..

ولمبدأ النسبية نفسه ، بدا ذلك الأسبوع أشبه بالسنين ..

والعقود ..

والقرون ..

وعندما حانت لحظة اللقاء ، وجدت نفسى أنتظرك بكل اللّهفة ..

وكل الحب ..

وكل الخوف أيضًا ..

وأتيت ..

أتيت فى موعدك بالضبط ..

أتيت بجمالك ..

وعذوبتك ..

وسحرك ..

وابتسامتك أيضًا ..

تلك الابتسامة ، التى لن أنساها أبدًا ؛ لأنها جعلتنى أدرك أننى قد فزت بأعظم جائزة فى الوجود ..

حبك ..

* * *

٤ـ فى الجنـــة ..

إنه النعيم لا ريب ..

حبك أصبح عالمى .

وجنتى ..

وعشقى ..

وكل شىء فى وجودى ..

كان حبًّا هادئًا ..

قويًّا ..

جميلاً ..

ومحترمًا ..

وفى كل يوم يمضى ، كنت أكشف فيك مزيدًا من الروعة ..

والجمال ..

والإبهار ..

فجمالك الحقيقى لم يكن يكمن فى ملامحك الفائقة فحسب ..

كان هناك سحر آخر ، خلف كل جمال خارجى ..

سحر مبهر ..

عظيم ..

فريد ..

ونادر ..

كنت صورة للأنثى ، التى يحلم بها كل رجل فى الوجود ..

الأنثى الرقيقة ..

الوديعة ..

المحبة ..

الدافئة ..

المخلصة ..

الوفية ..

المتفهِّمة ..

الواعية ..

والمتفانية فى العطاء ..

ولو استطردت فى وصف محاسنك ، والفتنة الكامنـة فى شخصيتك ، لما وجدت ما يكفى من الأقلام ..

والأوراق ..

وحتى الكلمات ..

يكفينى أنك قد اعتبرت أن هدف وجـودك فى الحياة هو إسعادى ..

تمامًا كما اعتبرت أن وجودى كله مسخرٌ لإسعادك ..

كنا معًا صورة مثلى ، لما ينبغى أن يكون عليه الحب ..

عطاء مستمر ..

من الجانبين ..

عطاء لا يتوقَّف ..

أو ينقطع ..

أو يضع سقفًا لبلوغه ..

عطاء ممتد بل نهاية ..

وبلا حدود ..

كنا طوال الوقت نحب ..

ونحب ..

ونحب ..

وعلى مر الأيام ، والشهور ، والسنين ، لم نمل حبنا قط ..

ولم يتوقف عطاؤنا لحظة واحدة ..

والمدهش أن كلاً منـا كان يتصورّ أنه لا يمنح الآخر كما ينبغى ..

أو أنه يأخذ أكثر مما يعطى ..

لذا ، فقد رحنا نتسابق فى هذا المضمار ..

ونتسابق ..

ونتسابق ..

ولأن حبنا قويًا ومحترمًا ، فقد دام طويلاً ..

دام إلى الحد الذى جعلنا نتصورّ أننا لسنا فى الدنيا ..

بل فى جنة ..

جنة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأرض ..

جنة صنعناها لنا ..

لنا وحدنا ..

وعلى الرغم من فارق العمر بيننا ، كنا متفاهمين تمامًا ..

ومتوافقين ..

ومتعلقين ببعضنا ..

وعلى نحو يصلح للروايات الرومانسية والعاطفية ..

أو حتى للأساطير ..

وأصبحت واثقًا من أنها ليست مجرَّد أزمة ..

أو حتى نزوة عاطفية ..

بل هو حب حقيقى ..

حب قوى ..

عنيف ..

محترم ..

وعظيم ..

وعلى الرغم من أننى معروف بصمتى وكتمانى ، كنت أتحدَّث إليك طوال ساعات كاملة بلا انقطاع ..

كنت أفرغ كل مشاعرى ..

وهمومى ..

ومتاعبى ..

وحتى أفكارى على مسامعك ..

وكنت تستمعين فى اهتمام ..

وانتباه ..

وتفاعل ..

وتعاطف ..

وتجاوب أيضًا ..

وكان هذا أعظم ما فى حبنا ..

أنه قد حطَّم الأسوار ..

والحواجز ..

والقواعد ..

والحدود ..

كان حبًّا يمنحنا قوة ، ما بعدها قوة ..

قوة جعلتك تتجاوزين سنوات دراستك فى نجاح ..

ودفعتنى إلى أن أتقدّم فى عملى ..

وأحقق المزيد من النجاح ..

والمزيد ..

والمزيد ..

وجودك إلى جوارى وحده ، كان يفجّر فى كيانى طاقات هائلة ، لا حدود لها ..

طاقات تضىء أمامى الطرق ..

كل الطرق ..

وفى كل ساعة تمضى ، وعلى الرغم من لقاءاتنا شبه المنتظمة ، كانت لهفتى إليك تتزايد ..

وتتزايد ..

وتتزايد ..

وكان من المؤكّد أن النيران ، التى بدأ بها حبك فى قلبى ، لم تعد تكتفى به ، وإنما امتدّت منه إلى جسدى ..

وأطرافى ..

وعقلى أيضًا ..

حبك تحوّل إلى نيران باردة دائمة ، شملت كيانى كله ، وصنعت لوجودى لوحة كبيرة جميلة ..

لوحة جمعت حواسى كلها ..

لوحة اسمها الحب ..

حبك ..

وفى كل دقيقة ، كانت كل لمحة منك ، تعلن أنك تحملين المشاعر نفسها ..

وربما بأطهر مما أحملها أنا ..

أو أكثر عمقًا ..

فهذه هى الأنثى دومًا ..

مشاعرها أدفأ وأرقى من مشاعر الرجل ألف مرة ..

ربما لأن طبيعتها تدفعها إلى الحنان ..

والحب ..

والعطاء ..

وأكثر ما أسعدنى ، فى سنوات جنتنا ، هو أنك كنت تمنحيننى دومًا الحب والثقة ..

كل الحب ..

وكل الثقة ..

كنت تتعاملين معى بمنتهى الاطمئنان ..

والارتياح ..

والأمان ..

كانت ثقتك بى مطلقة ..

وثقتى بك بلا حدود ..

حتى عندما بدأ حبيبك السابق محاولاته لاستعادتك ، لم أشعر بذرة واحدة من الخوف أو القلق ..

كنت شديد الثقة بك ..

بانتمائك ..

ووفائك ..

وحبك ..

كل ما فعلته هو أن رحت أتابع محاولاته وردود أفعاله فى هدوء ، وإن راودنى الغضب تجاهه بضع مرات ..

ولكن دون انفعالات كبيرة ..

أو ردود أفعال حادة ..

أو قلق ..

وكنت أنت كعهدى بك ..

واضحة ..

حاسمة ..

ومباشرة ..

ربما لم يستطع هو أن يدرك هذا أو يفهمه ..

أو حتى يستوعبه ..

ولكن هذا هو الفارق الرئيسى بينى وبينه ..

فهو قد أحب جمالك الظاهرى فحسب ..

وحتى هذا ، لم يحبه كما ينبغى ..

لقد أراد تغييره ..

وتبديله ..

وتشكيله على هواه ..

أما أنا ، فقد أحببت ظاهرك وباطنك ..

أحببتهما معًا ..

وبنفس المقدار ..

ودعنى أخبرك ، بمنتهى الصدق ، أننى منذ عرفتك ، وحتى هذه اللحظة ، ما زلت أتطلّع إلى وجهك بانبهار مسحور ..

ما زلت لا أملّ التطلّع إليه أبدًا ..

وما زلت أكشف فى ملامحه حلاوة ..

وسحرًا ..

وفتنة ..

إنه فى نظرى دومًا أشبه بالقمر ..

بالبدر المضىء ، فى قلب السماء ، فى ليلة صحوة ، خلت تمامًا من الغيوم ..

ولقد أدرك حبيبك السابق هذا حتمًا ، بعد أن افترقتما ..

أدركه ، وعاد يسعى خلفك ..

وبمنتهى الإصرار ..

ولكنك كنت أكثر منه إصرارًا ..

وحسمًا ..

وصلابة ..

حتى أجبرتيه على الابتعاد تمامًا ..

وإلى الأبد ..

وعلى الرغم من أننا لم نتحدّث عن هذا الأمر صراحة ، إلا أن ما تابعته جعلنى أحمل لك مزيدًا من الاحترام ..

والتقدير ..

والحب ..

وجعلنى أيضًا أعيد تقييم السنوات ، التى مضت فى عمر حبنا ..

أعيده من منظور مختلف ..

ومفهوم جديد ..

ورؤية أكثر وضوحًا ..

وكم بدوت لى عندئذ رائعة ..

عظيمة ..

وراقية ..

بدوت صورة لأجمل زوجة ، يمكن أن يحظى بها إنسان ، على وجه الأرض ..

وعبر التاريخ ..

كله ..

وهنا بدأت الفكرة تنمو فى رأسى ..

فكرة زواجنا ..

أنا وأنا ..

ولكم اختلج قلبى ، وأنا أفكِّر فى الأمر ..

لقد بدت لى الصورة ، وكأنها جزء من جنة الأرض ..

بل هى الجنة ..

كل الجنة ..

زواجى منك بدا كأعظم فكرة ، يمكن أن تخطر ببالى ..

بل لقد أدهشنى أننى لم أفكِّر فيها من قبل ..

أو أتوقف لمناقشتها وطرحها أبدًا ..

لقد غرقنا فى حبنا ، حتى نسينا أننا نحيا فى الدنيا ..

انتشينا به ، حتى لم نشعر بمرور الوقت ..

أو مضى الزمن ..

ثم أنك لم تحاولى الإشارة إلى هذا أبدًا ..

أو حتى التلميح إليه ..

كنت كعادتك ، تتركين القرار لى ..

لى .. وحدك ..

قرارنا معًا ..

ومستقبلنا معًا ..

ومع فكرة الزواج ، بدأت أدرس الأمر على نحو جديد ..

فمع فارق العمر بيننا ، وبعض التعقيدات المركَّبة فى حياتنا ، كان زواجنا سيواجه حتمًا عقبات عديدة ..

وسيخوض صراعات عنيفة ..

وسيتلقى ضربات مخيفة ..

وبالنسبة لى ، لم يكن هذا يقلقنى كثيرًا ؛ فقد اعتدت مواجهة كل أمر فى حياتى بقوة ..

وأن أمضى دون توقُّف ، فى كل ما أؤمن به ..

وزواجى منك كان أكثر ما آمنت به ، فى حياتى كلها ..

وكنت مستعدًا للقتال من أجله ..

وللصراع فى سبيله ..

وبكل قوتى ..

وإرادتى ..

وخبرتى ..

ولكن ما شغل تفكيرى أيامها ، هو موقفك أنت ..

موقفك ، وليس قرارك ..

فما من أنثى محبة فى الوجـود ، يمكن أن ترفض فكرة الزواج من حبيبها ..

ولكن هل سيمكنك احتمال المشكلات ؟

والعقبات ..

والصراعات ..

ولأننى اعتبرت نفسى المسئول الأوَّل عن سعادتك وأمنك ، فقد رحت أدرس الموقف ؛ للبحث عن وسيلة لبلوغ الهدف ، مع تجنيبك كل تداعياته ..

بقدر الإمكان ..

وعندما توصلت إلى النتيجة ، قرَّرت أن أعلنك بالأمر ..

وأن أطلب يدك ..

منك ..

وعندما اقترب موعد لقائنا التالى ، كنت غارقًا فى سعادة جمة ، وانفعال بلا حدود ..

وكنت أنتظرك بلهفة ..

بمنتهى اللَّهفة ..

وفى تلك اللحظات ، التى تشكِّل مرحلة فاصلة ، فى حياتى كلها ، كنت أتصوَّر أننى قادر على مواجهة الدنيا ..

والناس ..

وحتى القدر ..

هذا لأننا ، عندما نحيا طويلاً فى جنة الدنيا ، ننسى دومًا أنها ما زالت قطعة من الأرض ..

من الحياة ..

والدنيا ..

والقدر ..

القدر الذى يصرّ دومًا علـى أن يفرض قواعده ، وليس قواعد آمالنا وأحلامنا ..

وبالذات تلك القاعدة المخيفة ..

دوام الحال من المحال ..

فالحال الذى أحببته ، والذى أحببنـاه معًا ، لم يكن من الممكن أن يدوم ..

لأنها ليست الجنـة ، التى وعدنـا بها الخـالق (سبحانه وتعالى) ..

إنها جنة صنعتها أيدينا ..

جنة على الأرض ..

جنة زائفة ..

ولقد انتبهت إلى هذه الحقيقة على نحو مباغت ..

وبعنف ..

بمنتهى العنف ..

والعنف هنا ليس فى الوسيلة ..

ولكن فى النتيجة ..

فالأمر لم يتجاوز فى البداية بعض الآلام السخيفة ..

آلام حاولت احتمالها ، كما أفعل مع كل الآلام الأخرى منذ طفولتى ..

إلا أننى لم أحتمل ..

كانت آلامًا مختلفة هذه المرة ..

مختلفة تمامًا ..

وقبـل أن ألتقى بك بيومين فحسب ، قرَّرت إجراء بعض الفحوص الطبية ، لمعرفة سبب هذه الآلام ..

ولأمر لم يمكننى تفسيره أيامها ، ولا أستطيع تفسيره ، حتى هذه اللحظة ، عجزت عن مصارحتك برغبتى فى الزواج منك ، وقرَّرت أن أنتظر نتائج الفحوص ..

التقينا ..

ولم أخبرك ..

أنت شعرت أننى أخفى شيئًا ما ، وسألتنى عنه بكل القلق ، وبكل حنان الدنيا أيضًا ..

ولم أستطع إخبارك ..

حاولت ..

صدقينى أننى قد حاولت ..

ولكن كيف أقولها ؟

كيف أدفع فى نفسك القلق ؟

والخوف ..

أو حتى الترقُّب!

كان هذا آخر ما يمكننى أن أحتمله ..

على الإطلاق ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يفارقك القلق أبدًا ..

وكأنك كنت تعلمين ..

أو تشعرين ..

أو تقرئين بقلبك ما أخفيه فى قلبى ..

ولقد تمزَّق قلبى ، وأنا ألمح هذا فى عينيك ، عندما افترقنا ..

وبعد يوم واحد ، هرعت لمعرفة نتائج الفحوص الطبية ..

وكانت مفاجأة عنيفة ، هزّتنى من الأعماق ..

عنيفة للغاية ..

* * *

٥ـ الأزمــــة ..

بدأت الأزمة عندى أنا ..

بدأت منذ اللحظة ، التى قرأت فيها نتائج الفحوص الطبية ، وأدركت طبيعة تلك الآلام السخيفة ، التى لم أنجح فى تجاوزها ..

لقد كان ذلك المرض الخبيث ، السخيف ، الغدَّار ، الذى يهاجم المرء دون إنذار ، لينتزعه من قمة الآمال والأحلام ، ويلقى به إلى الهاوية ..

هاوية اليأس ..

والمرض ..

والضياع ..

ولقد كانت صدمتى عنيفة للغاية ..

صدمة أى إنسان ، يتصوَّر دومًا أن تلك الأمراض تصيب الآخرين فقط ..

وأنها لن تقترب منه أبدًا ..

أو أنه يستطيع أن يخطّط لحياته ..

وأن يقرّر ..

وينفذ ..

دون أن يضع فى ذهنه أية اعتبارات أخرى ..

وفى نفس المكان ، الذى تسلّمت منه الفحوص الطبية ، جلست واجمًا ، أُفكّر فيما حدث ، وفيما يمكن أن تتداعى إليه الأمور ..

فالحدث كله كان أشبه بأفلام الميلودراما ، التى طالما سخرت منها ، واستهنت بها ، وتصوّرت أنها مبالغة أكثر مما ينبغى ..

الأفلام التى تسير فيها الأحداث حتى ذروة معينة ، ثم تنهال عليها المصاعب والمشكلات والتعقيدات من كل صوب ..

فالآن ..

الآن فقط ، وعندما اتخذت قرارى بالزواج ممن أحب ، يقتحم ذلك المرض الخبيث حياتى ، ليصنع حاجزًا بينى وبينك ..

فمع ظهوره فى جسدى ، انهار الهدف الأوّل لوجودى ..

سعادتك ..

وأمنك ..

كيف يمكن أن أمنحك السعادة والأمان ، وحياتى مهدّدة بالفناء ؟

كيف أمنحك عمرى ، ولم يتبق منه سوى القليل ؟

والقليل جدًا ..

الطبيب الذى أعطانى نتائج الفحوص ، حاول تخفيف الصدمة ، فأخبرنى أن احتمالات الشفاء من هذا النوع بالذات مرتفعة نسبيًا ..

وأنه ما زال فى مراحله الأولى ..

ولكن هذا لم يشعرنى بالكثير من الاطمئنان ..

أو حتى بالقليل منه ..

ففكرة الموت نفسها لم ولن تخيفنى أو تقلقنى كثيرًا ..

ولكن فكرة عذابك أنت كانت ترعبنى ..

أنت ..

كل تفكيرى لحظتها تركَّز عليك ..

وحولك ..

وأول سؤال طرحته على نفسى ، هو : هل أخبرك بالأمر أم لا ..

كنت قد تعهدْت لنفسى ألا أكذبك القول أبدًا ..

وأن أخبرك الصدق دومًا ..

فهل أخبرك ؟

هل أبلغك أننى مصاب بمرض خبيث ؟

هل أنتزع إحساسك بالأمان ، على هذا النحو القاسى العنيف ؟

هل سيمكننى هذا ؟

هل ؟

لم يكن إخفاء الأمر صعبًا أو عسيرًا ، بالنسبة لشخصية كتومة مثلى ، اعتادت الحفاظ على خصوصيتها ، وأسرارها ، منذ نعومة أظافرها ..

ولكننى معك كنت أختلف ..

أختلف كثيرًا ..

فما أن نلتقى ، حتى أعجز عن كتمان ما بنفسى ..

أو الحفاظ على أسرارى ..

وجودك كان الكود السرى ، لفتح خزانة أسرارى ، وإفراغ كل ما فيها دون حذر أو تردُّد ..

وبمنتهى الثقة ..

ومنتهى الارتياح ..

وشغلنى الأمر كثيرًا وطويلاً ..

شغلنى على نحو انتبهت أنت إليه ..

وقلقت ..

وتساءلت ..

تساءلت فى أعماقك ، كما أنبأتنى عيناك الساحرتان ، اللتان لا تكذبان أبدًا ..

ثم على لسانك ، الذى لا يقطر سوى أعذب وأرق الكلمات ..

وحاولت بعض الوقت أن أخفى عنك السر ، كما أفعل مع الدنيا كلها ..

ولكننى عجزت عن هذا ..

فكما قلت لك: علاقتى بك تختلف ..

تختلف كثيرًا ..

لذا فقد أخبرتك ..

صحيح أننى قد حاولت التهوين من الأمر ، ووضعه فى أفضل صيغة ممكنة ..

إلا أنك فهمت ..

وهلعت ..

وذعرت ..

وعلى صدرى أفرغت دموعك ..

ومشاعرك ..

وحبك ..

ثم فاجأتنى بمطلب مدهش ..

أن أتزوّجك ..

وبسرعة ..

كنت كمن يتحدّى القدر ..

أو من يحاول إثبات حبه ..

وعشقه ..

وتفانيه ..

كنت تعلنين لى فى وضوح ، أن حبنا أقوى من كل شىء ..

من الحياة ..

ومن الموت أيضًا ..

وكانت كلماتك يومها رائعة ، دافئة ، يصعب أن يصيغها أديب متمكّن قدير ، إلا لو عاشها لحظة بلحظة ..

كنت تقولين : إن زواجنا سيتيح لك فرصة الوقوف إلى جوارى ..

ومؤازرتى ..

ومعاونتى ..

فرصة منحى كل الرعاية ..

والعناية ..

والحب ..

وقلت لى: إن حبك سيصبح أفضل دواء لكل ما أعانيه ..

وكنت أتمنى ، من أعمق أعماق قلبى ، أن أنفذ مطلبك ..

هذا لأنه كان مطلبى ، قبل أن يصبح مطلبك ..

كان ..

ولكنه لم يعد كذلك ..

لم يعد من الممكن أبدًا أن أتزوَّجك ، لأتركك من بعدى أرملة شابة بائسة ، فى ريعان عمرك ..

صحيح أن الأعمار بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن المسئولية ، التى أشعر بها تجاهك ، كانت تمنعنى من الإقدام على هذه الخطوة ..

على الأقل ، ليس فى هذه الأزمة ..

وبقلب يتمزَّق ، رفضت الفكرة تمامًا ، وقرَّرت تأجيلها لما بعد فترة العلاج ..

لو أنه هناك أمل ..

أى أمل ..

وبدأت بالفعل رحلة مؤلمة ..

رحلة طويلة ..

شاقة ..

مرهقة ..

ومزعجة ..

رحلة أثبتت حقيقة حبك ، وأصالة معدنك ...

كنت دومًا إلى جوارى ..

لم تتخلى عنى لحظة واحدة ، بشهامتك المعهودة ، لو صح أن توصف النساء بالشهامة ..

وكنت طوال الوقت كعهدى بك ..

حنونة ..

مخلصة ..

دافئة ..

دافقة ..

ومتفانية ..

ومن أجلك قاومت ..

وقاومت ..

وقاومت ..

ومع حبك الكبير ، ورعايتك المستمرة ، بدأت المعجزة تحدث ..

معجزة الشفاء ..

فالفحوص المستمرة ، أشارت إلى أن حبك ورعايتك كان لهما مفعول السحر ، على جهازى المناعى كله ..

المرض الخبيث استجاب للعلاج ، وراح ينكمش ..

ويقل ..

ويذبل ..

ويذوى ..

وبعد عام تقريبًا ، تبقَّت منه كتلة صغيرة محدودة ، استخدم الأطباء تقنية شديدة التطور ؛ لاستئصالها ، وهم يؤكدون أنهم أمام معجزة طبية ، تشير إلى تحقق شفاء ، كان البعض يعتبره مستحيلاً ..

وكانت فرحتى غامرة بالشفاء ..

أما فرحتك ، فقد بلغت أضعاف فرحتى ..

ولكن الجهد الشديد ، الذى استهلك انفعالاتك ومشاعرك ، طوال فترة العلاج ، كان قد حفر ملامحه الواضحة ، على جزء كبير من شخصيتك ..

فبعدها ، لم تعودى كما كنت أبدًا ..

لقد أصبحت مرهقة ..

مجهدة ..

حزينة ..

وبعيدة ..

نعم .. بعيدة عنى بمشاعرك ..

بأحاسيسك ..

وحتى بحبك ..

فترات الخوف والقلق ، وكتمان المشاعر والأحاسيس ، وإجبار الشفاة على الابتسام ، عبر قلب حزين كسير ، حطَّمت فى أعماقك أعظم مافيك ..

الصفاء ..

والنقاء ..

والتلقائية ..

ولقد حاولت جاهدًا أن أقترب منك ؛ لنعود كما كنا ..

حاولت ..

و حاولت ..

و حاولت ..

ولكنك فى هذه المرة قاومت ..

وبعنف لم أعتده منك أبدًا ..

كنت وكـأنك قد فقدت فجأة شعور الأمـان ، الذى كنت تشعرين به معى دومًا ..

أو كأن انتهاء الرحلة ، قد جعلك تسترجعين غضبك ، من رفضى الزواج منك ، مع بداية الأزمة ..

ولم أتعلَّم من الدرس القديم ..

أو لم أتصوَّر أن حبًّا كبيرًا كحبنـا ، يمكـن أن تزيحـه الخطوب ..

أو تنال منه الأيام ..

لقـد تصوَّرت أنها مجـرَّد مرحلة ، لن تلبث أن تمضى ، ونعود إلى سابق عهدنا ..

نعود حبيبين ..

وصديقين ..

وعاشقين ..

وأعترف هنا أنك قد حاولت مثلى ..

كلانا حاول ..

وحاول ..

واقترب ..

وربما عاد حبنا ينتعش فى أعماقنا ..

ولكن ليس كسابق عهده ..

أبدًا ..

كنا نلتقى ..

ونتحدَّث ..

ونتصارح .. •

ولكن ليس كما كنا ..
لقد بدأ حاجز ما ينمو بيننا ..
حاجز حاولت إزالته كثيرًا ، ولكنه ظلّ ينمو ..
وينمو ..
وينمو ..
ثم بدأ أمر آخر يطفو على السطح ..
فمنذ بدأ حبنا ، كنت أعتبر نفسى مسئولاً عن رعايتك ..
وعن العناية بك ..
من كل الوجوه ..
وكان هذا يسعدك ..
ويفرحك ..
ويقرّبك ..
ولكنه ، وبعد بدء الأزمة ، صار يزعجك ..
أصبحتى تضيقين لعنايتى بك ..
وتغضبين لرعايتى لك ..
وفى بعض الأحيان كنت تصرين على ألا أتدخّل فى شئونك ..

أو أقترب من احتياجاتك ..
كنت وكأنك تحاولين التحرُّر منى ..
من عنايتى ..
ورعايتى ..
و حبى ..
وبقدر ما آلمنى هذا ، فقد أردت أن أمنحك حرية اتخاذ القرار ..
وحق تقرير المصير ..
كل ما كنت أتمناه هو أن تفتحى لى قلبك ..
وأن تشرحى لى ما بداخلك ..
ولكنك لم تفعلى ..
أبدًا ..
ولسبب ما ، كنت غاضبة من أننى لم أفهم هذا وحدى ..
ولم أستوعبه بقلبى ..
أو بعقلى ..

كنت تريدين دليلاً جديدًا على حبى ..

على ارتباطى بك ..

ورغبتى فيك ..

أما أنا ، فقد أثار هذا التغيُّر توترى ، إلى حد كاد يلتهم حياتى كلها ..

فحبى لك لم ينخفض أبدًا منذ عرفتك ..

ولم يفقد ذرة واحدة منه ..

بل لقد تزايد ..

وتزايد ..

وتزايد ..

فذاكرتى كلها لا تحمل لك إلا كل موقف جميل ..

وعظيم ..

ومثالى ..

صحيح أننا كنا نختلف أحيانًا ..

ونتشاجر ..

أو نتشاحن ..

أو نغضب ..

إلا أنه كان غضب المحبين ..

وخلاف العاشقين ..

ولكنه لم يترك فى نفسى أى أثر ..

حبك كان دومًا أشبه بممحاة كبيرة ، تمحو كل ذرة خلاف أوَّلاً فأوَّلاً ..

وطوال الوقت ..

وحتى فى لحظات كتابتى لهذه السطور ، لا أستطيع أن أذكر موقفًا سيئًا واحدًا لك ..

كل ما أذكره هو مواقف أسأت أنا فيها إليك ..

وأقسم إننى لم أقصد أيها قط ..

ولم أتعمَّده ..

أو حتى أسعى إليه ..

فكل ذرة فى كيانى تأبى دومًا الإساءة إليك ..

إلى مشاعرك المرهفة ..

وأحاسيسك الرقيقة ..

وحنانك الدافق ..

ولكننى أعترف أننى قد أسأت إليك بعض المرات ..

أحيانًا مع توترات العمل ..

أو خلافاته ..

أو صعوباته ..

وأحيانًا أخرى أثناء فترة المرض ..

والألم ..

والعلاج ..

ولكننى أبدًا لم أحاول أو أرغب فى الإساءة إليك قط ..

يجب أن تثق فى هذا تمامًا ..

ودائمًا ..

ومع شعورى بتباعدك عنى ، قرَّرت أن أبتعد أيضًا بعض الوقت ، حتى أمنحك فرصة للهدوء والتفكير ..

ولاتخاذ القرار ..

ولأننا كنا فى منتصف الصيف ، فقد غادرت إلى بلدة ساحلية شهيرة ..

وأصبحت بعيدًا عنك ..

بعيدًا بجسدى ..

بجسدى فقط ..

وليس بقلبى ..

فدائمًا كان يعمل لحسابك ، وليس لحسابى ..

وكان ينتمى إليك ، وليس إلىَّ ..

وما زال ..

وهناك ، فى تلك البلدة الساحلية ، رحت أراجع الموقف كله ..

أراجع حبنا ..

وعشقنا ..

ولقاءاتنا ..

وأحاديثنا ..

وأفكارنا ..

ثم باغتتنى موجة عارمة ..

موجة من الحب ، غمرت كيانى كله ، وكادت تقتلع قلبى من بين ضلوعى ..

يا إلهى .. كم شعرت لحظتها أننى أحبك ؟

كم أدركت أنه من المستحيل أن أحيا بعيدًا عنك ؟

كم استوعبت أننى غارق فى عشقك حتى النخاع ؟

وكان من المستحيل أن أنتظر بعدها يومًا واحدًا ..

وفى مكالمة هاتفية ، أخبرتك بكل هذا ..

أخبرتك أننى أحبك ..

وأذوب فى هواك ..

وأريدك ..

أريدك زوجة لى ..

وبسرعة ..

أخبرتك بكل اللَّهفة ..

وكل الحب ..

وكل التهافت ..

ولكن رد فعلك بدا لى عجيبًا عبر الهاتف ..

لقد بكيت ، وأنت تخبريننى أن هذا كل ما تتمنينه ..

ولم يحمل لى بكاؤك أية لمحة ، من لمحات السعادة ..

أو الفرح ..

أو حتى الاطمئنان ..

لقد كان بكاءً حزينًا ..

بائسًا ..

يائسًا ..

وكان من المستحيل أن أظل هناك ، بعد أن سمع قلبى هذا البكاء ..

كان لا بد أن أعود ..

وبأقصى سرعة ..

وفى اليوم التالى مباشرة عدت إليك ..

عدت بكل لهفتى ..

ورغبتى ..

وحبى ..

عدت لأخبرك أننى أريد أن أتزوّجك ..

وأننى أرغب فى التقدّم لطلب يدك فورًا ..

وفور وصولى ، أجريت اتصالى بك ..

وحددنا موعدًا للقاء ..

والتقينا ..

وبكل لهفة الدنيا ، أخبرتك كل ما لدى ..

وشرحت لك كل ما يختلج به قلبى ..

وطلبت يدك ..

ولكنك كنت تحملين لى مفاجأة ، لم أكن أتوقّعها ، أو حتـى أتخيلها أبدًا ..

فلقد رفضت الزواج منى ..

وبمنتهى الإصرار .

* * *

٦ ـ الصدمة ..

رفضك صدمنى بحق ..

وبشدة ..

صدمنى ؛ لأننى كنت أحمل لحظتها رغبة صادقة مخلصة للزواج منك ..

بل ولهفة لذلك أيضًا ..

كل لهفة الدنيا ..

ولكن القدر كان يأبى زواجنا لسبب ما ..

أو لهدف ما ..

فقديمًا ، كنت مثلى ، ترغبين فى زواجنا ..

فى ارتباطنا ..

فى حياتنا المشتركة ..

وعندما أردت أنا هذا بشدة ، أصابنى المرض ..

وبعد الشفاء ، رفضت أنت ..

كان هنا شىء لم أفهمه أيامها ..

ولا حتى الآن ..

أعلم أنك فقدت شعور الأمان ..

ولكن هذا لم يفسر ما أصابك من تغيير ..

ليس كله على الأقل ..

والأقرب إلى المنطق ، أنك قد فقدت الثقة ..

الثقة فى أنه يمكن أن تحصلى معى على الأمان ..

والاستقرار ..

والهدوء ..

على المودّة ..

والرحمة ..

والسكينة ..

أو أنك ، كما أخبرتنى بنفسك ، لست قادرة على مواجهة الآخرين بمثل هذا الزواج ..

لست مستعدة لمواجهة التعقيدات ..

والمشكلات ..

والمصاعب ..

وكانت هذه صدمة أخرى ..

فقديمًا ، كنت مستعدة لمواجهة الدنيا كلها من أجلى ..

من أجل حبنا ..

وحياتنا ..

ومستقبلنا ..

كان قرارك واضحًا ..

راسخًا ..

مباشرًا ..

ثم أصبح خائفًا ..

متوترًا ..

مترددًا ..

وهذا يعنى أن شعلة الحب فى قلبك قد انطفأت ..

أو خبت ..

أو انخفضت على الأقل ..

ومع انخفاضها ، ارتفعت كل الصعاب ..

والمتاعب ..

والمشكلات ..

والتعقيدات ..

ارتفعت لتصبح أمامك جبالاً عملاقة ..

هائلة ..

جبارة ..

والدليل على هذا أنك لم تكتفى برفض الزواج منى فحسب ، بل طلبت أن تنتهى علاقتنا أيضًا ..

أن ننفصل ..

ونفترق ..

وأن يذهب كل منا فى طريق مختلف ..

بل وأكَّدت أنه صار من المستحيل أن يتواجد أينا فى حياة الآخر ، على أية صورة من الصور ..

وبدت الصدمة أعنف ..

وأعنف ..

وأعنف ..

إلا أنه لم يكن لدى ما يمكن أن أفعله ..

فالحب يا حبيبتى أشبه بالقطار ..

لا بد له من قضيبين لينطلق ..

ولو فقد أحدهما ، فسيختل توازنه ..

ويخرج عن مساره ..

ويتحطَّم تمامًا ..

الحب يحتاج إلى قلبين ..

وليس أبدًا إلى قلب واحد ..

ولأننى حاولت استعادة حبك ..

ولأننى فشلت فى هذا ..

كان من المحتم أن أنسحب ..

وبقلب يبكى بدموع من دم ، انسحبت ..

حاولت حتى أن أمنحك مهلة للتفكير ، ولكنك رفضت تمامًا ..

رفضت حتى فكرة المهلة ..

وكان علىَّ أن أنفذ ما عاهدت نفسى عليه دومًا ..

أن أمنحك السعادة والأمان ..

وما داما سيتحققان بعيدًا عنى فهذا قدرى ..

وقدرك ..

وانسحبت ..

انسحبت ، وأنا أتمنى لك التوفيق فى حياتك ، وأؤكد لك أننى سأظلّ دومًا مسئولاً عن رعايتك ..

وأنك ستجديننى فى أى وقت ..

وفى كل وقت ..

ولست أذكر أن قلبى قد تمزّق قبلها ، مثلما حدث فى تلك المرة ..

لقد فقدتك ..

فقدت الإنسانة الوحيدة ، التى منحتها كل حب الدنيا ، فى حياتى كلها ..

والتى منحتنى النعيم ..

كل النعيم ..

وكما طلبت أنت ، حاولت أن أنسحب من حياتك كلها.

وكان هذا يؤلمنى ، بأكثر مما يمكننى أن أصفه ..

ولكنها حياتك ..

حياتك التى أقسمت على أن أضحى بكل شىء فى الوجود ، حتى أمنحك كل ما تنشدينه فيها ..

حتى لو كان ما أضحى به هو أنا ..

ونفسى ..

وحبى ..

المهم هو أنت ..

هو سعادتك ..

وراحتك ..

وشعورك بالاستقرار والأمان ..

والواقع أننى أستطيع أن أتحدَّث عن مرارة هذه الفترة فى مجلدات ضخمة ، ربما تستهلك كل الكلمات الحزينة فى اللغة ..

إلا أننى لن أفعل هذا ..

لن أنقل إليك أبدًا أحزان وقسوة تلك الأيام ..

الأيام التى انفصلنا فيها ..

الأيام التى بدا وأنها ستدوم إلى الأبد ..

لولا اتصالك ..

اتصال هاتفى واحد منك ، التقطت خلاله أذناى لهفة خفية ، فى مكان ما من صوتك ..

لهفة فجَّرت فى أعماقى كل لهفة الوجود ، وجعلتنى أهرع إليك ، دون ذرة واحدة من التفكير ..

ولست أدرى ما الذى دفعك إلى العودة إلىّ ، فى تلك المرة ..

ولم أحاول أن أعرف ..

ولن أحاول ..

يكفينى فقط أنك قد عدت ..

أيًا كانت الأسباب ..

وأيًا كان الثمن ..

فمن المؤكَّد أن الحب نفسه ، الذى تفجَّرت ينابيعه فى قلبى ، هو الذى ارتويت أنت منه ، فى أيام فراقنا ..

المهم أننا عدنا نلتقى ..

ونتحدَّث ..

ونتحاور ..

ولكننا لم نعد أبدًا كما كنا ..

كان هناك حذر عجيب ، قد وُلِدَ فى أعماقك ، وصار يحكم كل لقاءاتنا ..

وحواراتنا ..

وكلماتنا ..

وتضاعف رفضك كل محاولة منى لرعايتك ..

تضاعف مرتين ..

أو أكثر ..

بل لقد صرخت مرة فى وجهى ، أنك تشعرين بهذا أنك مدينة لى ، وأن هذا الشعور يزعجك ..

وبشدة ..

وصدمنى هذا أيضًا ..

أنت مدينة لى ؟

أنت ؟

أنت يا من منحتينى الحب ..

والدفء ..

والحنان ..

والرعاية ..

أنت تشعرين أنك مدينة لى ؟

يا للعجب ..

كيف يمكن أن تكونى مدينة لى ، وأنت دائنة ؟

كيف لم تدركى يا حبيبة عمرى ، أن ما منحتينى إياه ، يفوق كل ما يمكننى أن أمنحك إياه ، حتى ولو ظللت أرعاك لألف ألف سنة ؟

ألا تدركين كم يساوى الحب ؟

ألا تعلمين كم تساوى كل لحظة قضيتها بقربك ؟

ألا تفهمين أن المشاعر تزن أضعاف أضعاف ما يزنه الذهب ؟

إننى أنا الذى يشعر دومًا أنه مدين لك ..

مدين لحبك ..

لعواطفك ..

لإخلاصك ..

لدفئك ..

لكل موقف لك معى ..

وكل عطاء ..

إننى مدين لك يا روح فؤادى ..

وسأظل مدينًا لك إلى الأبد ..

ولست أدرى حتى كيف سيمكننى أن أسدد لك هذا الدين الباهظ ..

فعمرى كله لن يكفى لهذا ..

ولا حتى لنصفه ..

بل ، ولست أدرى حتى لماذا عدت إلىَّ ..

فعودتك كانت مشوبة بالحذر ..

والحيطة ..

والقلق ..

وبعض العدوانية أيضًا ..

ولأننى أحببتك ، وأحبك ، وسأظل أحبك إلى الأبد ، فقد جاهدت لاستعادتك ..

لاستعادة ذلك الملاك الرقيق ، الذى أحببته من كل قلبى ..

وصدقينى ، لقد بذلت كل ما بوسعى ..

وحاولت أيضًا أن أعيد مشروع زواجنا إلى الوجود ..

وعلى الرغم من أن لعبة الميلودراما ظلَّت مستمرة ، على نحو عجيب ..

فمن تداعيات العلاج المكثف ، الذى تلقيته لمقاومة ذلك المرض الخبيث ، أن أصابنى عقم ثانوى ، يمنع الإنجاب تمامًا ..

وكان هذا يعنى أن زواجنا سيظلمك ..

سيظلمك كثيرًا ، وسيحرمك من أرقى شعور تحلم به كل أنثى ..

الأمومة ..

وكنت أبذل جهدًا خرافيًا ، لتجاوز هذه الأزمة أيضًا ..

ولأن علاقتنا أصبحت حذرة ، فلم أخبرك بهذا ..

وبأمور أخرى أيضًا ..

بدأت أتعلَّم كيف أخفى عنك الأمور ..

وكيف أستعيد كتمانى ..

وصمتى ..

حتى وأنا معك ..

وكان هذا يعنى أن حبنا يتزعزع ..

ويتغيَّر ..

ويفقد أجمل وأروع ما فيه ..

البساطة ..

والصراحة ..

والوضوح ..

كل هذا ، على الرغم من كل ما أبذله من جهد ..

وكل ما تبذلينه من محاولات ..

كنت أشعر بمحاولاتك ..

ومعاناتك ..

وحيرتك ..

وكان كل هذا يؤلمنى ..

ويحزننى ..

ويمزقنى تمزيقًا ..

خاصة وأن التداعى الطبيعى له ، هو أننا رحنا نتباعد ..

ونتباعد ..

ونتباعد ..

فالواضح أنه أصبحت تتنازعك الآن مجموعتان متناقضتان من المشاعر ..

حبك لى ..

وخوفك منى ..

المشاعر الأولى يمكننى فهمها ..

أما الثانية ، فهى تحيرنى ..

وتعذبنى ..

وتؤلمنى ..

ولكن ما يمزقنى بحق ، هو أن كلماتك وتصرفاتك ، فى الآونة الأخيرة ، كانت توحى بأن علاقتنا أصبحت تفتقر إلى عاملين غاية فى الأهمية والحيوية ..

الثقة ..

والاحترام ..

فلم تعد لديك أية ثقة فى أننى أسعى للزواج منك ، على الرغم من أننى أفعل كل ما يمكننى لهذا ..

ولم يعد لديك احترام لمواقفى ..

أو حتى آرائى ..

كنت وكأنك قد مللت علاقتنا ، وأصابك الضجر منى ، ولم يعد باستطاعتك الاستمرار ..

ولكنك ، فى الوقت نفسه كنت تستمرين ..

وبازدواجية عجيبة ..

ففى بعض الأحيان ، تفيضين حبًا وحنانًا ..

ولهفة أيضًا ..

وفى أحيان أخرى ، تكونين جافة ..

صارمة ..

قاسية ..

كنت وكأنك قد أصبحت شخصيتين فى جسد واحد ..

واحدة تشتاق لحبيبها ..

والثانية تبغضه ..

وتخفى عنه مشاعرها ..

وأسرارها ..

وأفكارها ..

لم نعد حبيبين هائمين كسابق عهدنا ..

بل أصبحنا حبيبين لدودين ..

حتى عندما أحاول أن أتحدث عن زواجنا ..

عن أحلامى للمستقبل ..

ولحياتنا معًا ..

حتى عندما أحاول أن أفعل هـذا ، تواجهيننى بتلك الشخصية الثانية ، التى ما زلت أندهش لوجودها ..

بالجفاف ..

والصرامة ..

والكثير من القسوة ..

وعلى الرغم من هذا فما زلت أحبك ..

ما زلت أحمل لك نفس المشاعر القديمة ..

نفس الأحاسيس ..

والذكريات ..

والأحلام ..

فالأمر الذى لا تدركينه ، هو أن طبيعتى تلقى دائمًا كل الأمور السيئة خلف ظهرى ..

وتتجاهلها ..

ثم تنساها تمامًا ..

ولا تبقَى لى دومًا سوى الذكريات الجميلة ..

والأحلام العظيمة ..

والطموحات الكبيرة ..

وما زلت أحبك ..

أحببتك فيما مضى ..

وأحبك الآن ..

وسأظل أحبك إلى الأبد ..

ولكننى لم أعد أثق فى حبك لى ، كما كنت قديمًا ..

لم أعد أعتقد أنه نفس الحب ..

أو حتى جزء منه ..

ربما أصبح الأمر مجرَّد اعتياد ..

أو ألفة ..

ولكنه ليس حبًا ..

ليس نفس الحب الذى كان ..

أبدًا ..

إنه شىء آخر ..

شىء ما زلت أحاول فهمه ..

واستيعابه ..

وتقديره ..

ففى بعض الأحيان ، يبدو لى أشبه بالغضب ..

غضبك من ضياع سنوات شبابك ، فى حب كهذا ..

أو غضبك منى ..

من أمور فعلتها ، دون أن أدرى ..

أو أمور تتصورين أننى فعلتها ..

أو لم أفعلها ..

وفى أحيان أخرى ، ينسحق لها قلبى ، تبدو لى مشاعرك شبيهة بالكراهية ..

بالبغض ..

بالمقت ..

وهذا يثير فى نفسى الفزع ..

كل الفزع ..

فما زلت أستطيع أن أحتمل كل شىء فى الوجود ..

إلا كراهيتك لى ..

إننى مستعد للتخلى عن حبى لك فورًا ، لو أن هذا سيبقى على خيط من المودة بيننا على الأقل ..

ولكن بلا كراهية ..

مستعد لفعل أى شىء فى الوجود ، لو أن هذا ما سيسعدك ..

أى شىء ..

فقط حاولى أن تسترجعى لمحة واحدة من حبنا القديم ..

من عشقى لك ..

من اعتنائى بك ..

تذكرى موقفًا واحدًا ، كنت فيه رقيقًا أو مخلصًا معك ..

وانفضى عنك الغضب ..

والبغض ..

والكراهية ..

ولا تستنكرى قولى هذا أو تنكريه ؛ فالأسابيع القليلة الماضية كانت تعنى لى الكثير ..

الكثير مما فهمته ..

وما عجزت عن فهمه ..

وكان لا بد وأن أفهمه ..

لهذا ، فقد قضيت وقتًا طويلاً فى التفكير ..

والدراسة ..

واستعادة التفاصيل ..

أدق التفاصيل ..

ثم طلبت مقابلتك ..

والتقينا ..

كنت حذرة متحفظة ، كعادتك فى الآونة الأخيرة ..

وكالمعتاد ، تحاشيت أن نتواجد معًا ، فى أى مكان منفرد ..

وكنت أتوقع هذا ..

وأنتظره ..

وأستعد له ..

لذا ، فقد طرحت الأمر مباشرة ، وطلبت منك مواجهة نفسك ..

ومشاعرك ..

وقلبك ..

طلبت منك أن تتأكدى من حقيقة مشاعرك نحوى ..

ودون أية اشتراطات مسبقة ..

أهى الحب ..

أم الغضب ..

أم البغض ..

وفى هذه المرة الأخيرة ، وبإصرار منى ، منحتك مهلة طويلة ..

ضعف المهلة ، التى منحتك إياها ، للتأكد من حقيقة مشاعرك ، قبل أن يربطنا رباط الحب ..

أسبوعان كاملان ، عليك فى نهايتهما اتخاذ القرار ..

وتحديد طبيعة مشاعرك تجاهى ..

هذا ما قلته ..

وما سمعتيه منى ..

ولكنه لم يكن ما أعنيه أبدًا ..

أو بمعنى أدق ، هو ليس كل ما أعنيه ..

فالمهلة هذه المرة لم تكن لتحديد المشاعر فحسب ..

ولكن لاختبارها ..

فمنذ عدة سنوات ، رفضت الحصول على أية مهلة ..

هذا لأن مشاعرك كانت واضحة ..

قوية ..

واثقة ..

أما فى هذه المرة ، فقد رأيت أنه لا بأس بها ..

فما الذى يعنيه هذا ، من وجهة نظرك ؟!

ربما لا تدركين ..

ولكننى أدركت ..

ولهذا أكتب إليك هذه السطور ..

أكتبها قبل أن تنتهى المهلة ..

وقبل أن تتخذى قرارك ..

القرار الذى احتجت إلى أسبوعين كاملين لاتخاذه ..

ولأنك ، بشخصيتك الجديدة ، ستتصورين أن الهدف منها هو التأثير فى قرارك ، فلابد وأن أصارحك أنا بقرارى أولاً ..

فعلى الرغم من أنك ما زلت حبيبتى ، التى أحببتها ..

وأحبها ..

وسأظل أحبها ..

إلا أننى قد أفقت من غيبوبة حبك بضع لحظات ، لأدرك حقيقة مؤلمة ، لست أدرى كيف لم أدركها منذ البداية ..

أدركت أننا بالفعل مثل قضيبى القطار ..

قويان ..

ممتدان ..

ومتوازيان ..

ولا يمكن أن يلتقيا أبدًا ..

هذا لأن كل منهما يسير فيه التيار ، فى عكس اتجاه الآخر ..

أدركت يا حبيبة عمرى أن زواجى منك ، أو حتى ارتباطى بك هو منتهى الظلم ..

الظلم لك بالطبع ..

ومنتهى الأنانية منى ..

ففارق السن ، الذى حاولت تجاهله قديمًا ، تكمن فيه الحقيقة كلها ..

حقيقة أنك المستقبل ..

وأننى الماضى ..

صحيح أن رسولنا الكريم لم يحب أبدًا ، مثلما أحب امرأتين ، إحداهما فاقته سنًا ، والأخرى فاقها عمرًا بكثير ..

السيِّدة (خديجة) ..

والسيِّدة (عائشة) ..

وصحيح أنه لم يشعر بالسكينة والارتياح ، مثلما شعر معهما ..

وأن هذا يثبت أن فارق العمر مجرّد وهم ، صنعته نظريات عصر ، تشابكت فيه كل الأمور ..

إلا أن الأمر لم يعد يصلح ، فى زمن التكنولوجيا والتعقيدات الكبيرة ، الذى نعيش فيه الآن ..

لذا ، كان من الخطأ أن أهمل هذا العامل الخطير ..

وأن أتجاهله ..

وأتجاوزه ..

صدقينى إننى لم أحب أو أعشق ، فى عمرى كله سواك ..

أنت حبيبتى ..

ومهجتى ..

وروحى ..

وعمرى ..

وحياتى كلها ..

ولكن ارتباطك بى يظلمك كثيرًا ..

يظلم شبابك ..

وحيويتك ..

وأمنك ..

وسعادتك ..

ومستقبلك ..

ولأننى أحيا لمنحك كل هذا ، وليس لحرمانك منه ..

ولأننى أشعر أنك أصبحت مرهقة بارتباطنا ..

ولأننى مستعد لفعل أى شىء فى الوجود من أجلك ..

فأنا أمنحك حريتك ..

أمنحك مستقبلك يا أجمل وأروع وأعظم من عرفت ..

يا كل من أحببت ..

وكل من عشقت ..

أنت ، منذ لحظة قراءتك لهذه السطور حرة ..

متحرِّرة ..

آمنة ..

لن يزعجك وجودى لحظة واحدة ، من الآن فصاعد ..

سأظل خارج حياتك ، طالما تريدين هذا ..

ولكننى سأظل هناك ، فى الوقت ذاته ..

سأظل بعيدًا ..

أتابعك ..

واوازرك ..

وأرعاك ..

وسأظل رهن إشارتك طوال الوقت ..

اعرفى هذا فقط كحقيقة ..

واعلمى أننى كنت ، وما زلت ، وسأظل مستعدًا للدوران حول الأرض جريًا ، لو اقتضى الأمر ..

من أجلك ..

من أجلك وحدك ..

وكل ما آمله الآن ، هو أن يكون هذا نهاية لعذابك ..

وترددك ..

وتوترك ..

وحيرتك ..

وبداية لانطلاقك فى عالمك الحقيقى ..

عالم المستقبل ، المفتوح أمام شبابك على مصراعيه ..

وهذا سبب آخر للمهلة الطويلة ، التى منحتك إياهـا هذه المرة ..

كنت فقط أريد أن أتيقن ، من أنك قادرة على الابتعاد ..

وعلى مواجهة الدنيا وحدك ..

أنك قد نضجت ..

وتبلورت ..

ولم تعد بك حاجة إلى وجودى ..

إلى رعايتى ..

وعنايتى ..

وحبى ..

وما هذه السطور والأوراق ، التى أتركها لك ، إلا مجـرَّد ذكرى لأيام سعيدة عشناها معًا ..

وذكريات عطرة ربطتنا برباط حب وثيق ذات يوم ..

ونسائم أيام حلوة ، لا يمكننى شخصيًا أن أنساها ..

ولا أريد أن أفعل ..

أبدًا ..

احتفظى بأوراقى لو أردت ..

أو مزقيها ..

واحرقيها ..

وتخلّصى منها ومنى ..

المهم ألا أكون ، سابقًا ، أو حاليًا ، أو مستقبلاً ، سببًا فى أيّة أزمة ، تعيشينها ولو لحظة واحدة ، يا حبيبة عمرى الوحيدة ..

بل أتمنى ، ومن كل خلية فى قلبى ، وكل ذرة فى عقلى ، وكل قطرة دم فى عروقى ، ومهما كان الثمن ، أو كانت التضحيات ، أن أصبح مفرجًا لأزمة ..

أزمة عمر ..

أو أزمة حب ..

أو حتى منتصف حب ..

حبى أنا ..

الوحيد .

د. نبيل فاروق

زهور
سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



د. نبيل فاروق

أزمة منتصف الحب

مع مضي العمر، يتحدث الكل عن أزمة خاصة ومعقدة .. أزمة منتصف العمر. ولكن هناك أزمة أخرى، تتزامن معها .. وتنشأ بسببها .. وتلقي دوماً بظلالها عليها ... أزمة لا يتحدث عنها أحد أبداً، على الرغم من انتشارها وقوتها .. أزمة منتصف الحب ..

100

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٠٠٠٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٠٢ - ٦٨٢٧٠

الثمن في مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

مطابع